آخِرُ رِجَالِ آلِ الأَسَد

رِوَايَة

اسم الكتاب	آخر رجال آل الأسد
تأليف	أمية الهاشمي
الموضوع	الرواية
الطبعة	الأولى – ٢٠٢٠
الناشر	كتاب سراي–اسطنبول
التدقيق اللغوي	بتول الحكيم
القياس	١٤×٢٠

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى – ٢٠٢٠

الناشر

KİTAP SARAYI
كتاب سراي

كتاب سراي – اسطنبول – الفاتح – جانب مسجد الخرقة الشريفة

+905340558303 – sarayikitap@gmail.com

آخِرُ رِجَالِ آلِ الأَسَد

رِوَايَة

لأمية الهاشمي

KİTAP SARAYI
كتاب سراي

إهداء

وتحية من قلبي

إلى جميع إخوتي المعتقلين والمعتقلات

في سجون الحريّة

مقدمة المؤلفة

خمسة أشهر كئيبة كانت مدَّة كتابتي لروايتي.. أردت أن أكتب في نهايتها مثل بقية الكتَّاب (القصة مستوحاة من الواقع)..

لكن الحقيقة المرّة أن أحداث الرواية.. التي تتعلق بواقع المعتقلين والمدنيين تحت إجرام آل الأسد.. قد خضعت لمئات عمليات التهذيب والتجميل.. حتى تبدو بهذا الشكل المقبول.. الذي لا يُدمي قلب القارئ، ولا يحطِّمُ فُؤادَه..

ريع الرواية كاملاً سيذهب للعلاج النفسي والجسدي للمعتقلين والمعتقلات السابقين..

أمية الهاشمي..

"آَخِرُ رِجَالِ آلِ الأَسَد"

رواية قصيرة ..

أثير الذكريات

مشفى المزة العسكري– سوريا ٢٠٣٠

يوم مزدحم من أيام احتفالات ثورة السابع عشر من آذار.

نعم.. التاريخ صحيح كما قرأتَ لحل الخلاف التاريخي بين ثورة دمشق ١٥ آذار وثورة درعا ١٨ آذار، ولو أنّ التاريخ أقرب لثورة العاصمة، لكن "حسناً لا بأس"، يقول ثوار درعا.

قطع تفكيري صوت الكاونتر والرقم الظاهر على شاشة الاستقبال ١٢٥٠.

فما كان مني إلا التحرك فوراً لحجز رقم.

في الوقت نفسه، كانت توجد فتاة في مقتبل الشباب، تسرع لأخذ الرقم قبل الشاب القريب منها، وبحكم كونه شرقياً عتيداً، فلا بدَّ أن تتناسب شهامته في هذا الموقف زيادةً ونقصاناً مع جمال الفتاة، مما جعله يركض بسرعة لكي يسبقها، ويأخذ الرقم قبلها.

الموظف للشاب: أخي هذا معيب.

حمدت الله في سري، مازالت الدنيا بخير.

ابتسمت الفتاة للشاب ابتسامة انتصار، الحق يقال إن بنات هذا الجيل على الرغم من عدم تمتعهنَّ بجمال بنات جيلنا؛ لكنهنَّ يحملن قوة شخصية لا تصدق، كيف لا وهنَّ تربية أمهات الثورة اللواتي عِشنَ تحت خطوط الفقر والقهر.

الممرضة: أستاذ هوزان تفضل للغرفة ٢٥.

أنا: لكن يا أختي.. لم يحن موعدي بعد.

الممرضة: عائلات المجندين والضباط لهم عيادات خاصة يدخلون من غير رقم، ثم ابتسمت قائلة: إذاً.. لماذا اسمه مشفى المزة العسكري؟!

استقبلتني الطبيبة بلهجة ديرية محببة وابتسامة عريضة، ما لبثت أن بدأت تتصنَّعها بعد وصول نتائج التحاليل.

الطبيبة: أنا متفائلة جداً.. نسبة تسارع نمو السرطان في بطء.

ـ يعني أيام إضافية في العمر والعذاب.

الطبيبة: التفاؤل أهم ركائز العلاج، نحن نهتم بالعلاج النفسي أضعاف ما نهتم بالعلاج الجسدي.

انتظار الدواء والفيتامينات في الخارج يحتاج عشر دقائق، فكرت فيها جيداً، هل أكتب قصتي أم لا؟

لا أريد أن أكتب قصتي؛ لأنني أتمنى أن تطوى هذه الصفحة بكل آلامها.

ولكن عندما أتذكر جدالاتنا ونقاشنا المستميت مع ابن قريبي؛ لكي يذهب إلى خدمة الوطن العسكرية التي لا تتجاوز ٦ أشهر، مع إنهاك أنفسنا بشرح ميزاتها من رياضة وأكل وهواء صحي ومعلومات علمية وعسكرية.

ثم ينتقل ذهني الى ابن صديقي وتذمره المستمر أثناء تعبئة استمارة الحصول على بدل هوية ضائع.

لم يعرف هذا الجيل، أن الهوية كانت أحد أهم أحلام السوريين الكرد، وبالنسبة للعرب فيمكن تحقيق الحلم...

وإخراج بدل ضائع بعد جلسة تحقيق وإهانات لا تخلو من ضرب كفين.

وأهم من هذا كله، أن هذا المكان الراقي الذي نجلس فيه الآن، كان عبارة عن مسلخٍ بشري للإنسانية والضمير.

ثم بدأ البث على شاشات المشفى نقل مباشر لمراسم الاحتفال بالعيد، مقابلات في المولات وتصوير ازدحام الأسواق بسبب التنزيلات.

بعد ذلك حسمت قراري، وقررت كتابة قصتي، وقصة أخي قتيبة بالاستعانة بأبطال القصة الحقيقيين، القصة التي ساهمت في وصولنا نحن والشعب السوري إلى هذه الأيام.

هواجس

٣ كانون الثاني ١٩٩٢

دمشق- حي الروضة الهادئ الراقي- هيئة الأركان المحصَّنة كالقلاع

اجتماع يضمُّ الدائرة المقربة من "حافظ الأسد" :ابنه البكر "باسل"، صهره "محمد مخلوف" ،"رستم غزالة" و"عبد الحليم خدام".

رستم غزالة: سيدي ستة أشهر وأفرع المخابرات كلها مستنفرة في سوريا ولبنان والأردن، لكن لا يوجد أي نتيجة أو دليل على وجودهم.

حافظ: ما قصدك يا حيوان؟ أنا كذاب أم خَرِفت؟

رستم: حاشاك سيدي لكن..

حافظ: لكن.. غباؤكم هو الذي يخرّب كلَّ شيء، عندما تشكُّون بالشخص تحضرونه فوراً، وتحفرون قبره.. لا تنتظروا.. لا تراقبوا.. لا تمسكوا بطرف الخيط.. أسلوب الحيونة السريعة لا يعمل دائماً.

انتهى الاجتماع.. انقلعوا للخارج.

باسل: أبي أنا سكتُّ طوال الاجتماع.. لا أريد أن أُجرّئ هذه الكلاب عليك.. لكن أنا فعلاً لا أستطيع الفهم.. لا دليلاً.. لا مشتبهاً به، لا شيء! لماذا هذا الاستنفار الذي لم نعمله وقت أحداث حماة.. ولا وقت الإخوان.. ولا وقت عمي رفعت حتى؟

حافظ: منذ متى كان مسموحاً الرد على كلامي؛ لكن بكل الأحوال يجوز لك ما لا يجوز لغيرك؛ لأنك وريثي الذي سيحافظ على مجد عائلتنا وسلطتها، ويجب أن تتعلم.

التنظيم الموجود اليوم أخطر بكثير من إخوان الشياطين (الإخوان المسلمين)، وأسوأ من عمك رفعت وسرايا الدفاع.

الحراك منظم بشكل مدهش، ويضم السنيَّ.. والمسيحي.. والدرزي.. والكردي.. وكل شيءٍ يخطر لك، يعملون مثل شبكة المخابرات، ويحاولون الاندساس في كلِّ مكان مهم.

رسموا خطةً طويلة الأمد تطبخ على شمعة، وسينتظرون حتى يقوون.. ويحدث أمر مهم.. موتي مثلاً؛ حتى يظهروا على الساحة بشكل علني ومتجذر في المجتمع.

وستسأل السؤال المملَّ المتكرّر.

كيف عرفت بأمرهم؟!

هذا اسمه إحساس الثعلب.. شيء تشعر به ولا تراه.

عندما تجد أولاد تجار الشام يحاولون الانضمام للجيش والشقاء والتعتير.

وعندما تجد الاهتمام المفاجئ بالسياسة من أولاد الفلاحين بالسويداء والأرياف.

باسل: لكن هذه كلها توقعات.. لا يوجد شيء ملموس.

حافظ: انقلع أنت أيضاً.

بالخارج :

محمد مخلوف: المعلم بدأ يخرف، أو أثقل بالشرب سهرة الأمس.

باسل: اخرس.. اخرس.. سيظنك أمير المؤمنين وزعيم التنظيم.

وتعالت ضحكات المجرمين.

تعاطف إخواني

٥ كانون الثاني ١٩٩٢

بتذكر آخر مرّة شفتك سنتا ..

بتذكر وقتا آخر كلمة قلتا..

وما عدت شفتك..

دمشق منطربةٌ ومخدرة بأغنية فيروز الجديدة التي كسرت ألحانها الدافئة برودة كانون القارسة، ودخلت كل بيتٍ وحي إلا مكاناً واحداً، كممت فيه الألحان وحبست فيه الأنغام لتبقى المعاني القاسية فقط (وماعدت شفتك) وغالباً ...لن أراك ثانيةً

حيث تختلف الحياة تحت الأرض تماماً ...مريحةٌ للأموات وعذابٌ لا ينتهي للأحياء.

فرع فلسطين– الطابق الثاني تحت الأرض.

يدخل اثنان من الشبيحة مع أربعة شباب في بداية الثلاثينات من العمر بوجوه خالية من الدَّم والتعابير.

– سيدي أحضرت صيداً ثميناً أربعة شباب أمسكناهم بتقارير مؤكدة، زاروا قبر صديقهم الذي نفق بالثمانينات.

– عن طريق من وصل التقرير؟

– سيدي كيف سأتكلم أمامهم؟ هذه معلومات سرية!

– لا تهتم.. لن يروا الشمس ثانيةً.. هذا إذا استطاعوا النظر بعيونهم.

– عن طريق حارس المقبرة، أكد لنا تعاطفهم مع صديقهم الإخواني المقبور، وقراءتهم الفاتحة على روحه النجسة.

– بكلِّ الأحوال ليس هذا ما نبحث عنه.

– سيدي.. أقول لك متعاطفين مع إخوان الشياطين، وتقول لي ليس هذا ما نبحث عنه.

– انقلع من وجهي.. قبل أن ألحقك بهم.

بعد خمس دقائق.. اختفت الوجوه الأربعة الطيبة وظهرت أصوات غير آدمية.

هجرة قسرية

٦ حزيران ١٩٩٢

صليت الظهر والعصر جمع تأخير في مقعدي الملاصق لنافذة الطائرة، وما إن وصلت إلى دعاء (ربِّ اغفر لي ولوالدي ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً) حتى انهمرت دموعي غزيرة.

مسحتها بسرعة؛ لأتفادى نظرات الركاب المتلصصة عليّ طوال وقت الصلاة.

لم تكن الطائرة التي تحلق، بل كانت روحي هي التي تتصعَّد في السماء، في أول ساعة أفارق فيها عائلتي، وأنا نور الجميلة الخجولة ابنة الثامنة عشرة التي لا تخرج من المنزل إلا برفقة والدتها.

تدافعت الذكريات المؤلمة في ذهني...

بعد خروج نتائج الثانوية التي نجحت بها بدرجات ممتازة ،كنت أسترق السمع من خلف باب غرفتي، الساعة ١٢ ليلاً.

أخي البكر محمد: يا أبي ليس من المناسب إرسالها إلى الجامعة، وخاصة تخصص الطب، كل يوم دوام، وأنت تعرف خطورة وضعنا.

أوسط إخوتي وأهدؤهم _عبد الرحمن_: نخاف أن تُلوى يدنا بها.

أخي الأصغر وتوأم روحي ومصدر صدمتي ذلك اليوم –عمار–: دعنا نزوجها.. جميلة وعمرها مناسب.. والناس تتنافس على مصاهرتك.

انفعل محمد: لكي يبدأ التهديد والوعيد من الصهر المحترم عند أول مشكلة.

عمار: وهل سنحضر صهراً من الشارع؟!

محمد: لكن ....

أبي: كأن والد البنت مازال حياً!

محمد: استغفر الله.. ليس هذا القصد أبي.. من بعد إذنك وموافقتك طبعاً.

مصطلحات وصدٌّ وردٌّ وتخوفات كثيرة، لم أفهم منها شيئاً حينها.

ساد صمتٌ طويل، بعدما لاحظ الجميع صمت أبي المتواصل الذي نطق فجأة: سأرسل أختكم لدراسة الطب في باريس، وهكذا ترتاح قلوبنا، ونستطيع العمل، ولا أحد يلوي ذراعنا، وإن ساءت الأوضاع يكن لنا مربط فرس نذهب إليه.

وهكذا تقرر مصيري، ومصير الرحلة معاً.

منذ صغري وأنا أحلم بدراسة الطب؛ لكن لم يخطر لي أبداً أنها ستكون في فرنسا، التي لا أعرف شيئاً عنها وعن لغتها وثقافتها.

قوس قزح

٨ حزيران ١٩٩٢

دمشق – حي المهاجرين.

محمد: والآن لم يعد هناك شيء يضغط علينا، أختي سافرت بأمان الله، وأمنا طُلّقت وسافرت إلى الأردن إلى أن ننتهي من عملنا.

الأب: جهزوا أنفسكم ستأتي جماعتنا اليوم، انزل يا عبد الرحمن راقب الشارع.

وأنت يا محمد! أحضر الصفيحة من الفرن، وأكرِم صاحب الفرن والشغيلة.. ولا تنسَ أن تذكر لهم أنَّ هذه عقيقة ابن عمتك، وأنت يا عمار .. أحضر اللبن.. وتكلَّم نفس الكلام، استودعتكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

بعد قليل.. بدأ قدوم الضيوف.

بعض التجار ودكاترة الجامعات، مهندسين.. أطباء.. أساتذة عرب وكرد من ركن الدين وعفرين والأماكن الكردية الأخرى.

بائع الدخان و التقارير الأمنية: وأنت يا ميشال أيضاً مدعوٌّ معهم إلى العقيقة.

الضيف ميشال: ما المشكلة إذا كنت مسيحياً.. "يعني حرام أن آكل منها"؟!.

المخبر: لا.. لا أقصد.. لكن استغربت أن تُدعى أنت.. وأنا المسلم لا.

ميشال: والله الدعوة للأحبة والمقربين.. ليس ذنبي إذا لم يدعوك.

طبعاً.. وضعنا الصفيحة على جنب؛ لأن آخر شي كنَّا نفكر فيه هو الأكل.

وبدأ اجتماعنا ،كان عددنا ٤٠ تقريباً، ٣٠ شخصيات الاجتماع، و١٠ كومبارس من العائلة مع الرضيع صاحب العقيقة..

أبي: بعد ذهاب صديقي إلى حماة وريف حلب وبالتشاور مع إخوتنا الكرد، عملنا دراسةً مفصلةً للأغلاط والأخطاء بحركة الثمانينات، ووصلنا للتالي:

سأبدأ أنا بالحراك العربي:

أول خطأ وقعوا به كان طبيعة الحراك، لقد تصنف تصنيفاً إسلامياً، و"حافظ الأسد" صار يعرف تماماً الخيط الذي يوصله إلى الثوار، والمكان الذي يبحث فيه، وحاول أن يقضي على كل مظاهر التَّدين في المجتمع بحجة الإخوان المسلمين، وبالنسبة للشعب، كان كل شخص غير إسلامي أو غير إخواني، يأخذ موقف المتفرج الحيادي.

ثانياً: التواصل والتخطيط بين الثوار كان معدوماً تماماً، كل شخص كان يعمل على هواه، لم يستطيعوا ابتكار أي وسيلة للتواصل.

أما ثالث الأغلاط: كيف نواجه ببضع بوارید جيش دولة ميزانيتها كلها تذهب للدفاع والتسلح؟!

رابعاً: عدم شراء ولاء الضباط الفاسدين، هؤلاء الناس الواحد منهم يبيع أمه بالمال، ومثلما دفع لهم "حافظ" ندفع لهم أكثر، ولم لا ونحن تجار السوق وحيتانه؟! ندفع برضانا ونحن مرفوعو الرأس، أفضل من أن ندفع الأتاوات المفروضة علينا، والحذاء العسكري فوق رؤوسنا.

خامساً: التجسس على الضباط، لو استخدمنا طرق ملتوية مثل الخادمات.. الراقصات.. دس جواسيس بالخمارات.. بالنهاية لنا أولاد وبنات يُعذَّبون ويُغتصَبون منذ عشر سنين، من وقت أحداث الثمانينات، وسنفعل المستحيل لإخراجهم.

والآن نستمع للأخ الكردي تقييمه للحراك الكردي بالماضي، ورأيه بالحراك الجديد، أغلاطُنا تقريباً مشابهة لأغلاطكم.

فالقومية بمظاهراتنا ومطالبتنا بمطالبنا المشروعة بشكل خاص، أظهرت ثورتنا وكأنها ثورة لبناء دولة مستقلة، فيما كان أقصى أحلامنا هوية ومعاملة محترمة.

الغلط الثاني: تطبيلنا وتزميرنا لحزب العمال، وانضمامنا لصفوفه، بالوقت الذي كان متحالفاً فيه مع نظام "الأسد" الذي حرمنا حقوقنا، واعتقل أبناءنا بدون أي تهمة أو محاكمة.

شيخ العقل من السويداء: نحن عددنا ألف حالياً، ولتجنب دخول أي غريب بيننا، يجب ألا ندخل أحداً إلى حراكنا، قبل أن نكون ممسكين عليه ممسكاً، بحيث تكون رجله قبل رجلنا بالفلقة.

الخطوة الثانية: البحث عن النخب المضطهدة من النظام والتقرب منها.

الخطوة الثالثة: نضع واسطات للتواصل، ولا يكون تواصلنا معهم بشكل مباشر، بحيث إذا وقع أحدنا بيد النظام، لا نقع كلنا مثل حبات المسبحة.

الأب: اجتماعنا السنوي الثاني، سنحاول أن يكون خارج البلد؛ لأن عددنا سيصبح أكبر بكثير.

الخطوات البطيئة الثابتة أفضل من السريعة المتهورة، ولن يحدث أي لقاء بيننا خلال العام.

أكلنا عقيقة ولادة أحلامنا وثورتنا، وتودَّعنا على أمل اللقاء على خير العام القادم.

ضحية أغلى من ضحية

٥ تموز ١٩٩٢

دمشق_ مشفى المجتهد الحكومي

رهبة أول يومٍ هي الضيف الحاضر دائماً، مهما بلغتُ من قوة الشخصية التي تنعكس على ملامحي السمراء وعيوني السوداء التي تزيد نظراتي غموضاً وجاذبية؛ لكن الذي خفف توتري قليلاً معرفتي المسبقة بكبير الجراحين ..صديق والدي الحميم.

الممرضة: دكتور محمد وصل مريض للطوارئ، يعاني من خدر كامل، وتوقف القدرة على الكلام، وانخفاض شديد بضربات القلب.

أنا: حولوه فوراً للعناية المشددة.

وأنا قادم فوراً.

بعد التشخيص والتصوير، تبين معي ومع فريق الأطباء تشوه بالصمام؛ مما يستدعي القيام بالتدخل الجراحي فوراً.

طلبت تجهيز غرفة العمليات بسرعة، وناديت أستاذي، خلال خمس دقائق بدأنا العملية، وكانت حركة يديّ أستاذي وملقطه داخل قلب المريض تذكرني بحركة يديه على خريطة مخططاتنا في اجتماعاتنا السرية، حيث كان دائم التدقيق والمراجعة والتمحيص لكلِّ خطوة وكلمة مكتوبة، فالخطة كقلب المريض تماماً أي خطأ بسيط، معناه الموت القاتل في الصميم.

كان أستاذي عصبياً ذا ردات فعل سريعة بشكلٍ غير متوقع؛ لكن الموقف القادم شلَّ لسانه عن الكلام تماماً.

دخل مدير المشفى وبلهجته الساحلية المتعالية، حيث لا بروتوكولات ولا لباقة ولا أعراف:

ماذا تفعلون هنا؟! هل هذه هي الأخلاق والوفاء لمن علمكم وجعلكم أطباءً وبشراً؟!

اليوم عرس الوطن، القائد يخطب من أجل فلسطين وتحريرها، وأنتم المثقفون يجب أن تقودوا هذا الحراك العفوي، وتكونوا أول الواصلين إلى ساحة الأمويين لتهنئة أنفسنا وقائدنا والتضامن معه.

لم أستطع إلا التكلم:

– لكن يا سيدي المريض حالته خطرة جداً.. وقلبه مفتوح.. وإذا لم تتم العملية سيموت.

مدير المشفى: دعه يفطس فداءً للقائد.. أغلق الجرح وأعطه حبة دواء.. إبرة.. تحميلة ..أي شيء.. من له عُمْر لا تهينه شدة.

توترت يداي وأنا أخيط الجرح، وانتقل رجفان قلب المريض إلى قلبي.

حملنا صور "باسل" و"حافظ"، ونزلنا لنهتف ونرقص الدبكة على شرف مهنتنا، ونحنث بقسم أبقراطنا، ونحتفل مع كل فئات الشعب المساقة بشكلٍ عفوي للغاية.

حب أعمى

ساحة الأمويين– وسط دمشق

رددنا أنا وأستاذي الشعارات القومية الفارغة مئات المرات، ومشينا مسافات طويلة حتى تجمعت الحشود كلها في في مكان واحد، ساحة الأمويين وسط دمشق، وهناك رأيت طلاب كلية الهندسة متجمعين، ولم يكن من الصعب عليَّ تمييز أخي عمار ذي الشعر الذهبي الأصفر والعينين السماوية.
أتيت من خلفه: عمار مفاجأة.. عمار كم لافتة وصورة معتلين عليك هههههه؟ عمار!
لم يسمع عمار حرفاً واحداً مما قلت، كانت عيناه ومسامعه مشدودة بالكامل إلى فتاةٍ ترقص وتدبك وتحمل على الأكتاف، ولا يتوقف رقصها وهتافها عند هذا الحد، بل لا بد من الزغاريد التي تصحي الميت من قبره.

وكان أكثر ما لفتني فيها انعدام أي لمسة أنثوية رقيقة ناعمة فيها.
لكن.. ماذا عن عمار الذي زاد حماسه بالهتافات، حتى حمل هو الآخر على الأكتاف.

انتهت المسيرة وعدنا إلى المنزل، وأنا أمني النفس بأنها مراهقة متأخرة، طيش شباب أو أي مسمَّى آخر غير الحب والإعجاب.

الأفعى الناعمة

أكتب للتاريخ...

حقيقة لا أعرف لماذا أكتب وأشارك في هذه القصة! هل لتبرير موقفي الذي لا يبرر، أم لإزاحة حملٍ عن كاهلي المتعب كل هذه السنين.

منذ المرة الأولى التي رأيت عماراً في المسيرة اخترق سهمٌ قلبي، لم يكن جماله فقط يسحرني، بل كلُّ شيءٍ فيه مختلف، لم يكن صاحب النظرات التي تدور وتتجوَّل في جسد الأنثى التي كان يتميز بها أبناء طائفتنا الذكور، ولا صاحب اللمسات التي يدّعي أصحابها البراءة وعدم الانتباه، لقد كان ابن أغنى عائلات دمشق وأعرقها، كان عليّ التقرب، ولكن بحذرٍ شديد هذه المرة من الشاب الدمشقي المحافظ؛ للوصول معاً إلى الحياة الزوجية السعيدة البعيدة عن حياتي المتنقلة بين القرية وهوامش دمشق العشوائية التي غزوناها مثل الجراد.

وأنا سعاد الحسن القوية، لن يصعب عليّ هذا مهما كلَّف الأمر.

خطتي كانت واضحة للتقرب منه مع اللباس والحركات الجادة البعيدة عن محاولة لفت النظر.

تكلمت مع دكتور الجامعة: دكتور.. أريد أن أسألك عن المشروع.. هل من الممكن أن أكون بمجموعة عمار وأصدقائه؟

الدكتور كان ابن قريتنا وصديق والدي الحميم، وكان لا بد من الانتباه الشديد.

الدكتور: ولماذا مجموعة عمار بالذات؟

أنا: لأن عماراً وأصدقاءه أكثر طلاب الجامعة تفوقاً.

الدكتور: من المعيب التكلم بهذا الموضوع، هل يعقل أن ترسبي وأنا موجود!

أنا: من فضلك دكتور هذه رغبتي.

بعد انتهاء المحاضرة.

الدكتور: عمار... أحمد... أيمن ...طه ... ستنضم الزميلة سعاد لمجموعتكم.

أيمن: لكن دكتور.. نحن كلنا شباب.. كيف ستنضم لنا؟

الدكتور: هل قلت لكم تزوجوها.. اسكنوا معها.. لا داعي لهذا الشرف المصطنع.. أفيدوها واستفيدوا منها فقط.

بعد الخروج من القاعة.

أحمد: تفضلي آنسة سعاد.. لنتناقش . دفع كل واحد منا ٥٠ ليرة من أجل المشروع، لن نأخذ منك شيئاً.. لأن كل شيءٍ جاهز.

أيمن: لكن يجب أن تشدّي الهمة.. ليكون مشروعنا الهندسي أول مشروع يقدّم.

وبدأت النقاشات بين أفراد المجموعة عن المشروع الذي كنت تقريباً لا أفهم منه شيئاً،

كنت مسحورة طوال الوقت بعينيه التي تشبه بحر اللاذقية، وبريقهما الذي يتلاطم في قلبي مثل الموج، كانت مشاركتي فقط عبارة عن نكتة هنا وتعليق هناك.

وانتهى النقاش باقتراحي الذهاب الى الكافيتيريا لأكل السندويش والشاي والتخفيف من تعبنا، وافقت المجموعة وعمار بعد تردد.

تكرر هذا الموقف في الأيام التالية مع محاولتي التقرب من عمار على وجه الخصوص، بتعليق على حلاقته الجديدة من جهة، وبانبهاري باقتراحاته التي لم أفهم منها شيئاً من جهةٍ أخرى.

أما دخولي إلى المسجد المقارب للجامعة عند دخول عمار ،كان لمن علامات دهشته وسعادته في نفس الوقت.

أنا: عمار هل الله سيتقبل مني صلاتي وأنا غير محجبة؟

عمار: طبعاً الله غفورٌ رحيمٌ.

بهذه الفترة صرت أسال عمار عن الصيام والزكاة وأحكام كثيرة، وكان يجيبني بكلِّ حماس، وصار يسأل عني إذا غبت ويكتب لي المحاضرات، وتوطدت علاقتنا كثيراً، لكن بيوم ١٤ شباط حدث ما غير حياتي وحياة عمار والجميع...

عيد الحب

١٤ شباط ١٩٩٣

قررت اليوم إطلاق رصاصة الحب الأخيرة على قلب الشاب الدمشقي الصعب الممتنع.

قدماي ساقتاني فوراً إلى سوق الحميدية–قسم تجهيزات العرائس–تشتري العرائس هذه الملابس لترتديها بعد خلع فستان الزفاف، أما أنا فقد كانت هذه الملابس طريقي إلى لبسه.

اشتريت أجرأها وأكثرها حرارة.

باص المهاجرين كان مكتظّاً بالركاب هذه الفترة، مما اضطرني لتعديل مكياجي عدة مراتٍ من الحر.

لمحتُ عبد الرحمن مع والده في السوق قبل أن أعود.

واتصلت بمشفى المجتهد للتأكد من أن الطبيب محمد موجود.

إذاً الجو خالٍ وجاهز لي.

أدرت المفتاح الذي نسخته سابقاً، ودخلتُ شقة الأحلام.

رفوف مليئة بالكتب القديمة، ثريات الكريستال البراقة، تحف شرقية وغربية، صناديق الصدف الدمشقية الأثرية، أثاث ساحر يحملك إلى أيام الدولة العثمانية البائدة.

كان المنزل في منطقة المهاجرين على جبل قاسيون الذي يطل إطلالةً رائعةً على دمشق.

دخلتُ غرفة عمار بسرعة ،عرفتها فوراً من ملابسه المعلقة التي أحفظها أكثر من كتبي، وغيرت ملابسي، بقي ربع ساعة لوصول عمار من الكلية، كانت عقارب الساعة متجمدةً تكاد لا تمشي.

ثم دار المفتاح في القفل، ومع الأصوات القادمة دارت الدنيا بي، لم يكن صوت عمار، بل صوت والده الخمسيني الأجش، وصوت عبد الرحمن الناعم، ولم تمضِ دقائق حتى دخل عمار مع الطبيب محمد.

أنا: ماذا يحدث هنا؟ لماذا ترك الجميع أعمالهم فجأة؟

جاوب العم كأنه سمع صوت عقلي المختبئ وراء الباب.

_الأب: أمسكوا ثلاثة من أهم شبابنا، عيارهم يومان تحت التعذيب ويعترفون، يجب أن نجتمع فوراً؛ لنرى كيف سنتصرف، وكيف سننظف الأدلة.

بعد نصف ساعة بدأ الاجتماع، لمحت من النافذة عماراً، وقد أحضر قالب حلوى كبير عليه ٢١ شمعة تمثّل سنوات شبابه المنتهك واتصلوا بسرعة ببعض أفراد العائلة؛ للتغطية على بقية الشخصيات المهمة؛ لإقامة حفل عيد الميلاد المزعوم.

ثم بدأ الحضور...

خليط من اللهجات الشرقية.. حلبية.. حورانية.. لكن ما شدَّ أذني وألصقها بالباب سماع لهجتنا الساحلية.. وهي تسبُّ وتخطط ضد القائد.

شيء أول مرة أسمعه بحياتي.

تجرّأت أكثر وشققت الباب (نضال سليمان) ابن قريتنا المتذمر دائماً من الفساد والمحسوبيات في نظام القائد.

اختبأت داخل خزانة عمار، بعدما وعت أذني وعيني كل الأسماء والوجوه.

لم تسنح لي أي فرصة للخروج طوال اليوم والليل؛ لكن ما كان يسلي قلبي قليلاً هو التلصص ورؤية عمار وهو نائم،كان أبيض اللون مع شعر أشقر رمادي على صدره، كان مثل الملاك.

لكن كانت فكرة تأخذني وفكرة تعيدني، ذكريات الفقر وبيع الفلاحين بناتهم خادمات للعائلات السنية قبل وصول "حافظ الأسد" إلى الحكم،

فرص العمل المتوفرة لي ولأخوتي ولكل أبناء الطائفة العلوية، بدون الحاجة للشهادات والخبرة، العزة والترفع الذي لم يشعر به آباؤنا وأجدادنا من قبل.

وهل العم الدمشقي المتعجرف سيقبل بي كنة وأم أحفاد هذا القصر؟!

أم سيقبل أن يصافح يد والدي التي لا تبارح بطحة العرق!

أريد عماراً، عماراً ولوحده فقط.

فرع فلسطين
١٥ شباط ١٩٩٣
الساعة العاشرة صباحاً

الضابط: هذه المعلومات مؤكدة يا سعاد؟

أنا: نعم يا سيدي لكن ابنه عمار ليس له علاقة بالموضوع أبداً، إنه زميلي بالجامعة.. وأنا أعرفه جيداً.

الضابط: الآن نعرف إن كان له علاقة أم لا.

أنا: سيدي أنا أؤكد.. ياسيدي ليس له أي علاقة ولا يعرف شيئاً عن الموضوع أبداً.

أعطيت كلَّ الأسماء، وخرجتُ من الفرع مرفوعة الرأس.

الآن لا يوجد شيء يفرق بيني وبين عمار، ولا يوجد شيء يفرق بين عائلتي ومناصبهم وامتيازاتهم.

سَبعٌ عِجَّاف

هي سنوات الجوع في مصر القديمة، أما الأيام السبعة القادمة في المعتقل، فكان كلُّ يوم يعادل سنةً منهم.

بعد أقلِّ من ساعة_ فرع فلسطين_.

-ياسيدي والله هذا كله افتراء، نحن لا علاقة لنا بشيء.

-نحن مجموعة أصدقاء.. نحب أن نجتمع كل فترة وفترة مجرد اجتماع عادي.

ضابط الأمن: وما كان طبيعة اجتماع الأمس؟

أبو محمد: عيد ميلاد ابني عمار.

الضابط: على من تضحك !؟حفلة عيد ميلاد لهذا البغل الكبير.

أنزلوهم إلى الحمام و اعملوا لهم الواجب؛ لنرى هل تتنشط ذاكرتهم أم لا.

بعد تعذيب دام عدة أيام...

الضابط: هل قررتم أن تتكلموا وبكل شفافية ووضوح.. أم نعيد وسائل الإقناع؟!

أبو محمد: يا سيدي.. والله أولادي ليس لهم أي علاقة بالموضوع، عمار طالب هندسة، وعبد الرحمن يدير تجارتنا في سوق الحميدية.

الضابط: على سيرة ولاد ال .... ابنك محمد أين يختبئ؟

أبو محمد: ليس مختبئاً، سافر قبل اعتقالنا بساعات، عنده عمل في السعودية.

الضابط: متى يعود؟

أبو محمد: بعد شهر.

الضابط: وهل تظن أنني سأصبر شهراً.. اتصل به ليأتي فوراً ..وإذا خرجت من فمك كلمة تحذير لا تلم إلا نفسك.

أبو محمد: أمرك سيدي.

_السلام عليكم.. كيف حالك ابني؟ متى ينتهي عملك؟

الطبيب محمد : بعد شهر ونصف إن شاء الله، هل حدث شيء؟

أبو محمد: لا يا بني، يسر الله لك.. خذ وقتك.

سد المحقق فم أبو محمد ، ليكتم تأوهاته وغز الموس في ركبته.

صرخ عبد الرحمن: محمد نحن بالفرع لا تأت، ليعاجله المحقق بضربات كرباج أسبحته ببركة من دمه،

ولم يعد يسمع من الهاتف إلا صوت ضربات قلب محمد، وأنفاسه السريعة المتلاحقة.

بعد قليل وصل للفرع "باسل الأسد" الابن الأكبر لـ"حافظ" ووريث العرش المنتظر.

باسل: سبعة أيام بلياليها.. لم تستطع أن تسحب اعترافاً واحداً منهم.. لا من السني.. ولا من الدرزي.. ولا من العلوي.. أنت محقق أنت! أنت كلب حراسة كثير عليك.

المحقق: ياسيدي لحمهم سينسلخ عن عظمهم، وقتل ثلاثة منهم تحت التعذيب وهم متمسكون لآخر لحظة بكلامهم: لا يوجد تنظيم ولا شيء.. مجرد اجتماع أصدقاء وفشة خلق.

باسل: انقلع من أمامي.. واترك الموضوع لي.

مسك باسل الملف:

أبو محمد التاجر الدمشقي المعروف، أول المقبوض عليهم مع أبنائه، الزوجة مطلقة في الأردن، البنت الوحيدة في باريس، خطان تحت البنت، يوجد عمة عجوز، أحضروا لي العمة فوراً.

بعد نصف ساعة...

- السلام عليكم.
- أهلاً وسهلاً بالحجة. رد باسل ..
- يا ابني الله يحفظ شبابك ويحميك لأهلك.. أخي وأولاده ليس لهم علاقة بالسياسة.
- يكفي.. اسكتي.. تسمعين كلامي وتقولين أمرك سيدي.. اتصلي بابنة أخيك التي بفرنسا فوراً.

العمة بخوف: ابنة أخي يا سيدي ليس لها دخل بالموضوع.. ولا تعرف شيئاً.. طالبة صغيرة مشغولة بدراستها.

- اتصلي بها ودعيها تأتي.. وإن لم تأتِ سآخذ ابنتك بدلاً عنها.

العمة بترجٍّ: حلفتك بالله.. حلفتك بأمك وأبيك وبكل غالٍ عندك.

- قلت لك لن أعتقلها.. مجرد بضعة أسئلة.. هل أنا كذاب؟!

- حاشاك.. لكن أنا لا أملك رقمها.

ضحكة استهزاء وتباهٍ على وجه باسل:

- لا تهكلي هماً.. عندنا أرقامكم وأرقام الذين خلّفوكم.

مسكت العمة السماعة بيد ترتجف.

نور: أهلاً أهلاً..كيف حالك عمتي.. اشتقنا لك.

- وأنا بالأكثر.
- لماذا صوتك متغير؟
- مريضة قليلاً.
- أنا سافرت من هنا.. وأنتم نسيتموني فوراً.. أسبوع كامل لا أحد يتصل بي.؟
- أبوك مريض قليلاً.. إذا استطعت احجزي وتعالي بأسرع وقت.
- ما مرضه؟ قولي لي.. لقد أخفتني كثيراً؟

أغلق باسل السماعة:

- ستبقين بضيافتنا حتى تأتي نور تنوّر لنا الفرع.

غزالة بين السباع
٢٣ شباط ١٩٩٣

وصلتُ إلى مطار دمشق الذي لم أره منذ شهور، لم يستقبلني هناك إلا نسمات دمشق الباردة، على باب المطار وقفتُ أبحث عن سيارة أجرة تقلُّني وفي قلبي كمٌّ هائل من الحنق والغيظ؛ بسبب عدم استقبال أحد من أهلي لي.

سيارة بيضاء بشبابيك سوداء تقف بجانبي، خرج منها شاب وفتح الباب وقال: تفضلي معنا.

- كيف سأتفضل معكم! من أنتم ؟!صرخت أمام السياح الأجانب بملء صوتي.

الشاب: تعالي بأدبك .. إذا أردت رؤية أبيك وإخوتك أحياء.

تسارعت دقات قلبي المضطرب لتدفعني إلى السيارة التي حشرت بها في الخلف بين شابين مفتولي العضلات يفترسانني بنظراتهم طوال الوقت، ليمسكاني فيما بعد من ساعديّ الرقيقين بغلظة ويدخلاني إلى مكتب المحقق.

- اجلسي.

رفعت عينيَّ قليلاً؛ لأرى محدثي، شعرت بانفصال سريع عن الواقع ..

(والآن يتم تتويج العقيد الركن الفارس الذهبي "باسل الأسد" بذهبية بطولة سوريا للفروسية –ماما هل ألصق صورة "باسل الأسد" على يمين صورة "حافظ" أم يسارها –أبو باسل قائدنا.. بالروح بالدم نفديك أبو باسل)

باسل: يلزمه رصاصتان برأسه المصور الذي صورك. هذا الجمال يجب أن يرسمه ليوناردو دافنشي.

شعرت بخدر برجلي، وكأني أغرق وأغوص وأغوص بقلب الكنبة الإسفنج.

باسل: هل تحبين أن تتكلمي بالذوق عن التنظيم الذي أسسه أبوك.. أم أشوِّه هذا الجمال كله بدقيقتين.

أنا: يا سيدي أنا أدرس في فرنسا.. والله ليس لي علم بشيء.. حتى لو عذبتني سأعترف كذباً لأنني لا أعرف.

حتى أبي وإخوتي طوال حياتي.. لم أسمعهم يسيؤون لحضرتك أو للوالد –حفظه الله– بحرف، لماذا لنفعل هذا، ونحن أبناء نعمة ولا ينقصنا شيء.

باسل: هذا الذي يثير جنوني.. لو كنتم فقراء فلاحين.. كنت فهمت الدافع.. لكنكم تجار وأطباء ومهندسون وبحرأموال، لماذا تنتقدون الوضع؟!

باسل: العقيد محسن خذها واعمل ما اتفقنا عليه.. لنرى هل سيقرُّ أولاد الكلب.. ويكشفون كل شيء أم لا.

بعد عشر دقائق من الصراخ والاستغاثة..

كنت أمشي في سرداب طويل يقودني اثنان من العناصر، عيناي متسعتان وتحدقان بالفراغ، والبرد على الرغم من عدم شدته ينخز جسدي العاري.

تمنيت لو كنت قبيحة، تعافني العين ولا تطيق رؤيتي.

لعنتُ جمالي وعينيَّ الخضراوين وشعري الطويل الأسود المموج الذي حاولت تحريكه مراراً وتكراراً؛ لأستر ما أستطيع ستره من جسدي ولكن عبثاً.

طرق العنصر الباب..

قلبي الواجم في صمت، بدأ يطرق بسرعة لمن أقاد مثل الجواري، من سيكون أوَّل الغزاة.

فتحت عينيّ على ملئهما، "باسل الأسد" متكئ على كرسيه يدخن سيجاره وثلاث كتلٍ مكومة.. تشبه البشر.. مغسلة بالدم.

صرخ ثلاثتهم عند رؤيتي صراخاً خافتاً يشبه الأنين، ومع صراخهم بدأت الأشياء بالابتعاد عني شيئاً فشيئاً، وتُظلم حتى لم أعد أعي شيئاً.

صحوت على كف من الضابط، ووجدت نفسي مستلقيةً بالأرض إلى جانب أبي وعبد الرحمن وعمار الذين لم أعرفهم إلا من أصواتهم.

باسل: إذا بقيتم معندين مثل البغال، فجهزوا أنفسكم لمشهد بورنو مسلٍ مع هذه الصبية الحلوة.

- يكفي يا سيدي سنعترف.. سنعترف بكل شيء.

كنت مخدرةً تماماً، سحبني الضابط لغرفة كبيرة وراقية، ورماني على السرير الذي بللته بدموعي.

بعد نصف ساعة دخل باسل:

- أنا وعدتك أن أتركك بعد انتهاء التحقيق والتحقيق قد انتهى، لكن هل يجوز أن يمر هكذا حدث بدون احتفال، وفتح زجاجة الخمر.

انعقد لساني، لم أستطع الكلام حتى يداي ورجلاي كانتا مشلولتين بشكلٍ كامل.

أنا لا أفكر... أنا لا أرى... أنا لا أتكلم...

أنا فقط أشعر...

أشعر بالألم.. الألم الذي ينغرس ويصل إلى شرايين قلبي.

لقد تسلى الأسد بالانقضاض على الغزالة الصغيرة تاركاً إياها تنزف حتى الموت.

لم أعِ الوقت حينها، ولكنه كان أطول من عمري كله.

يقطع الهدوء الطرق المتواصل على الباب بشدة، وتنتابني معه نوبة رجفان.

باسل: ياحيوان ، مئة مرة قلت لك لا تدق الباب وقت راحتي.

الضابط: سيدي الأمر ضروري جداً، اتصال من القصر الجمهوري.

باسل: حسناً ثوانٍ.

نظر لي باسل نظرة قرف، ولبس ملابسه بسرعة، ودخل المكتب المجاور.

باسل: أهلاً أهلاً ابن العم.. لماذا؟ ما علاقة السفارة الفرنسية؟!

باسل بغضب: من أجل الحفاظ على العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا يجب أن نضع حذاءً في فمنا ونسكت؟ لن تخرج ولو كان معها الجنسية الفرنسية.

اتصال ثانٍ.. لم أعرف من المتكلم لكن غير لون وجه باسل الذي أغلق السماعة وقال لي : انقلعي.. البسي أريد أن أقول لك كلمتين.

قمت ألبس بصعوبة بالغة، كانت يداي المرتجفتان تزرران أزرار المانطو بصعوبة، والحجاب وضعته من غير لف؛ لأن يديَّ كانتا عاجزتين عن ربطه.

آلة الزمن الاختراع الذي يأخذنا إلى الماضي، ويرينا الأجداد، أو إلى المستقبل لنرى الاختراعات، لم أرد من هذه الآلة إلا تقديم الاتصال نصف ساعة فقط لإنقاذي.

باسل: إذا علم مخلوق بما حدث بهذه الغرفة لا تلومي إلا نفسك، أحضرك أنت وأمك لو كنتما بقصر الإليزيه وأربطكم بهذا السرير وآمر كل عناصر الحرس الجمهوري أن يسلموا عليكم بطريقتهم الخاصة.. والآن انقلعي من وجهي.

ركضت من الفرع بسرعة مثل المجانين.

سائق الباص: العمى بقلبك.. هل تريدين الانتحار!

ركضت إلى خالتي لتحجز لي على أول طائرة متجهة إلى باريس.

ارتفعت الطائرة، وأنا واجمة أحدق من النافذة، رأيت المقبرة حيث يرقد الثلاثة ...أبي وأخي عبد الرحمن وتوأم روحي عمار، وإلى يسارهم ترقد أمي التي توقف قلبها عن العمل عند دخولهم إلى السجن.

محاولات محمد العديدة بالاتصال بي وتحذيري باءت بالفشل، فقد كنت أحلق بالجو، لا أعرف إلى أي جهنم سأهبط.

المضيفة: الرجاء من الركاب الكرام ربط حزام الأمان.

وهل الأمان كلمة يمكن أن تربط بحزام؟!

لقد فقدت كل الأمان، عندما فك أحدهم حزامه.

بدا كل شيء بعيداً من نافذة الطائرة، دمشق.. القبور الأربعة الراسية على جبل قاسيون تراقب دمشق بحزن وأسى.

الأرملة السوداء

محاولاتي لإنقاذ حبيبي عمار كلها باءت بالفشل.

لدرجة أن ضربني أبي مرة من المرات.

أنا: يا أبي ما ذنب عمار؟

أبي: متستر على الجريمة.. ذنبه مثل ذنبهم.

أنا: لكن المحقق وعدني ألا يعتقله.

أبي: وغير رأيه.. ووجد أهمية بإلقاء القبض عليه.

بكيت عدة أيام ،حقدي على أهل عمار سرق مني عماراً أيضاً.

بكيت ليالٍ طويلة؛ لكن ماذا يفيد الندم بعد الآن.

عاد لي الأمل بعد قرار الرئيس إصدار عفو عن بعض السجناء غداً.

السادسة صباحاً.. كنت أول الواقفين أمام فرع فلسطين، وقلبي يخفق بسرعة، يا ترى عمار سيسامحني؟ لكنه لن يعرف، وأنا سأخبئ السر بقلبي وسأنسيه هذه الأيام السوداء.

كنت متأكدةً تماماً أن عماراً سيخرج.

بدأ المعتقلون بالظهور.. أجساد نحيلة.. أقدام متورمة تكاد لا تستطيع حمل أصحابها.

كلما أطلَّ شاب أشقر ،كان قلبي يطير فرحاً حتى يتبين لي خطأي، لم يخرج أي اسم من الأسماء التي أدليت بها للمحقق إلا اسم واحد، الناشط العلوي فقط.

كانت دهشتي لا توصف بخروجه.. لماذا لم يخرج أحدٌ سواه!

أتوقع أنه نفسه لا يعرف لماذا.

ركضت إليه فوراً لأسأله عن عمار..

الناشط: من أنت؟

أنا: ابنته..عفواً عفواً أخته.

الناشط: فليرحمه الله، ارتاح من العذاب برفقة أبيه وأخيه، إذا احتجت لشيء أخبريني يا ابنتي.

كل أهالي أفراد التنظيم كانوا ينتظرون أقاربهم، وينظرون للناشط العلوي نظرةً مليئةً بالحقد والريبة.

مهما بلغ الإنسان من الخبث، فلن يصل إلى خبث النظام البعثي.

لقد أطلق سراح الناشط العلوي، وأطلق على تاريخه المعارض رصاصةً لا توصف بالرحمة أبداً، حيث توجهت جميع نظرات الشكوك نحوه.

وتلاشى الأمل بوجود إنسان حكيم معارض في طائفة الرئيس، ليضرب "حافظ" عصفورين بحجر واحد:

تزداد ثقة العلويين بالحصانة المطلقة الممنوحة لهم من رئيسهم، وتنعدم الثقة بين الطوائف السورية والمحايدين والإصلاحيين من الطائفة العلوية على قلة عددهم.

مشيت في شوارع دمشق هائمةً على وجهي، حتى وصلت منطقة المهاجرين، لأصعد في البرد على جبل قاسيون حيث المقبرة.

وقفت لي عدة سيارات أجرة؛ لكني رفضت الصعود كنت أريد أن أمشي حافيةً متألمة، علّ الله يرأف بحالتي ويكفر خطيئتي.

– السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين.. أنتم السابقون.. ونحن اللاحقون.

كأني أول مرة أسمع هذه الكلمة... إنه الموت ..الذي يأتي السجين كما يأتي السجان، سيأتي "حافظ" كما يأتي الفلاح والمواطن.

دخلت المقبرة ..مازال التراب رطباً.

لا أعرف ماذا أقول يا عمار؛ لكن ما يريح قلبي قليلاً أنك عند أرحم الراحمين مع أمك وأبيك وأخيك.

لن يعاتبك أحد على حبك الصافي لي، وغدري بك.

إنك في دار النعيم، حيث لقاء الأحبة... حيث لا عتاب ..لا جدال ..لا نقاش.

أرجوك سامحني... لقد صدقت أكذوبة المحاكمات العادلة والعفو.

لا أعرف كيف أكمل حياتي، وبم ستنفعني المناصب المهداة لنا أو الحراسة التي لا ينفذ منها إنسان، طالما روحك وروح عائلتك وأصدقائكم ستبقى تلاحقني وتؤرق ليلي وتقض مضجعي.

اكتئاب

مطار شارل ديغول

باريس ١٩٩٣

كان بانتظاري عمي المهندس المدني وتوأم والدي الحقيقي والروحي، وزوجته الحنونة العطوف، بادرا إلى ضمي وعناقي، أما أنا فكنت أنظر نظرات شاردة غريبة.

لم يسألاني أي سؤال...

عدنا فوراً إلى المنزل، وعلى مائدة تتناغم فيها الأطباق الفرنسية الشهية مع الأطباق الشامية الأصيلة.

تقيأت عدة مرات.

ودخلت غرفتي، وشرعت بالبكاء.

عمي: لاتهتمي يا بنتي.. غداً تتحسنين فقط ارتاحي، سأؤجل دراستك بالجامعة فصلين.

زوجة عمي: غداً نرى طبيباً نفسياً جيداً.. يعطيك أدوية تهدئ أعصابك وتريحك.. خذي هذه الحبة الآن ونامي.

في اليوم التالي.. بدأت رحلتي الطويلة مع مضادات الاكتئاب والمهدئات.

الأرواح تتكلم

– نعم أنا أنيسة إسماعيل خادمتك سيدي،

الله يحفظك لنا.. ويرفع رأسك مثل ما رفعت رأسنا ورأس طائفتنا.. لولاك ولولا أبونا القائد.. ما كنت حلمت بمنحة الطب في أرقى جامعات فرنسا.

باسل: توقفي عن كثرة الكلام.. هل تعرفين نور؟

أنيسة: نور أم المانطو والحجاب.. نعم أعرفها سيدي.. لكن من وقت عودتها من سوريا.. لم أرها ولم تأتِ إلى الكلية.

باسل: سآمرك أمراً.. وأنت وذكاؤك ..إما تحافظين على منحة الطب وتكسبين ١٠ آلاف دولار مع بطاقة طائرة تزورين أهلك.. أو سعرك رصاصة إذا علم بهذا الأمر مخلوق.

أنيسة: أنا يا سيدي عبدتك.. وخادمتك المطيعة.. وأفديك بروحي.

باسل: جيد.. تقربي من البنت.. واعرفي أخبارها جيداً.. وخاصة ماذا حدث معها عندما كانت في سوريا.. هل ذكرت اسمي.. أي معلومة ولو تافهة أخبريني إياها.

موعدنا إذا لا يوجد مستجدات بعد شهر تأتي لعندي قبل أهلك.. ولا تخبري أحداً بقدومك إلى الشام.. اكتبي العنوان: الحرس الجمهوري قدسيا ...

– أنا تحت أمرك سيدي.

١٠ آلاف دولار يعني شقة صغيرة أنيقة، أو سيارة حديثة.

آمال وطموحات كثيرة كانت تدور في رأس الشابة الصغيرة بعد البحث والتودد إلى صديقات نور..

علمتُ أنها مريضة نفسياً، غير قادرة على الكلام حتى تذكر اسم باسل وحافظ وغيرهما، ولم يعلم أحد شيئاً عن رحلتها إلى الشام، متوقفة عن الدراسة، تعيش الفشل على جميع المستويات.

لكن ما علاقة باسل بها؟ لماذا يخشاها؟ ابتسامة غيظ على وجه أنيسة التي فهمت الموضوع متأخرة.

اتصلتُ بباسل وأخبرته بكل شيء، وطلب مني الحضور لاستلام مكافأتي.

كان اللقاء المرتقب في القصر المشاد على قمة جبال الحرمون الذي يطل على الهامة وقدسيا بمنظر أخاذ، حيث تتمايل فروع الأشجار على نهر بردى لتغطيه بكثافتها، هدوءٌ مهيب إلا من صوت بعض الطيور التي كانت تغرد، وتنقر الثمار من الأشجار.

طرقت الباب مراراً ..لم يجب أحد، دفعت الباب.. الفيلا ساكنة ، مظلمة وباردة برود الموت.

- سيدي أنا جئت.. وعملت الذي أمرتني به.
- سيدي أين أنت؟

أُغلق الباب فجأة، وعم الظلام..

أنيسة بخوف: هل يوجد أحد هنا؟

صوت صفير سريع.. تدفق حار مثل نهر بردى يغسل وجهي وجسدي ولا يتوقف.

طارت العصافير بسرعة مذعورةً من الأشجار.. ثم عادت لتكمل طعامها وعاد كل شيء إلى طبيعته.

وسجل في النفوس: أنيسة إسماعيل... مفقود.

مواء قط

كندا _كالجاري _ مسجد بيت النور

٢٨ ١١ ١٩٩٣

لم يحضر لصلاة الفجر في هذا اليوم المثلج إلا الإمام وبضع عمال من المعمل المجاور .. بعد تكبيرة الإحرام مباشرة علا صوت صراخ رضيعٍ طغى عويله على صفير الرياح والعواصف..

خفف الإمام من الصلاة وبعد السلام طلب من النساء خلف الستار تهدئة الرضيع لإكمال الذكر و الدعاء، لكن عبثاً ..الصغير يأبى التوقف.

شيخي... لا يوجد نساء في المسجد!!

ركض الإمام والمصلين لاستكشاف الأمر وفتحوا باب المسجد؛ ليجدوا رضيعاً مع زجاجة حليب ساخنة.. أخذوه بسرعة خوفاً عليه من الصقيع وذئاب الغابة الملاصقة.

لا ورقة.. لا إثبات.. فقط غطاء سماوي منقوش عليه تاريخ الميلاد وكلمتان باللغة الإنكليزية:

my name is koutaybah

- كتيبة ..ما هذا الاسم الغريب!! هل هو من الكتابة، أم من الكتاب؟

في الغابة الثلجية لمعت أربع عيون آدمية، راقبت ووعت الوجوه جيداً، وتحركت بسرعة تسابق الزمن، المركز الوطني للقطاء:

أخذ الرضيع الجنسية الكندية، كما يأخذها جميع اللقطاء في المركز.

احتشدت المربيات الأربع على السرير الصغير يراقبن الرضيع الذي يشرب زجاجته بنهم.

- عيناه واسعتان يبدو عربياً.
- بشرته شديدة البياض ربما كان أوروبيا.

لم يقطع تأملاتهم إلا صوت خربشات غريبة قادمة من قسم الأدوية.

شعر الجميع بخوف .. سوزان :

- لنخبر الحارس.ثم دخلوا جميعاً، الغرفة مقلوبة رأساً على عقب!!
- ماذا يريد اللص بغرفة الدواء؟!
- اختفت عينات تحليل دم الأطفال، يجب أن نخبر الشرطة فوراً.

سوزان: وأن نأخذ حذرنا، سننيم الأطفال في غرفنا الليلة.

- سآخذ قتيبة وسيلينا إلى غرفتي.

لم تستطع الشرطة حل اللغز، وكان قتيبة دائم البكاء ليل نهار، الأمر الذي شجعهم على تسليمه لأول عائلة تطلب تبنيه.

تفاؤل مؤقت

٢٠١٢

اليوم حفل تخرجنا أنا وهوزان من الثانوية العامة، عملت أمي كل جهدها بتحضير الأطباق الشهية لنا ودعوة أصدقائنا.

هوزان: يا أمي لقد أتعبت نفسك كثيراً.

أمي: يا ليت كل التعب مثل هذا، أنت وأخوك قتيبة عيناي الاثنتان.

كان تخرجي من الثانوية البريطانية إنترناشونال الخاصة بينما تخرج هوزان من ثانوية حكومية.

لم يَشْكُ هوزان، ولم يتذمر يوماً من التمييز بالأموال المقدمة لي التي تفوق قدرة والديه حتى.

وكانت هديتي موبايل أيفون أحدث إصدار، أما هوزان، فقد كانت فرحته لا توصف بالبدلة الرياضية والحذاء الرياضي الجديد.

تلاشت الابتسامة عن وجهي، وقلت لأبي إذا كان هوزان يقبل فأنا لا أقبل.

لماذا أنا آيفون.. وهو بدلة رياضة فقط.

هوزان: طبيعي درجاتك أفضل من درجاتي.

أنا: وتتكلم باقتناع! الفرق بيننا درجتان فقط.

تقدمنا إلى كلية الطب أنا وهوزان، كنا نريد أن نصبح أطباء للثورة، ونعالج الجرحى والمصابين في سوريا ...لقد أرضعتني والدة هوزان مع حليبها قصص

حافظ وبعثه واستبداده، الذي طال البشر والحجر، في بلد لم أرها ولم يربطني بها إلا حليب أمي السورية الكردية الرقيقة، وأثبتت الدروس نفسها بوضوح مع بداية ثورة الشعب السوري.

لبست بدلتي البيضاء، وتوجهت في يومي الأول إلى الكلية مع آمال عريضة.

أثناء متابعة التسجيل، قابلتني الموظفة بوجه غاضب: سيد قتيبة.. لا نستطيع قبولك بالجامعة.

أنا: لماذا؟

الموظفة: القسط الأول لم يدفع.

أنا: كيف هذا؟ أبي حول النقود للحساب.

الموظفة: وعاد وسحبهم.

انقلب التمييز لصالح هوزان فجأة.

وصلتُ إلى البيت وضغطي مرتفع للآخر، ولم أنس رمي بدلة الطب بأول قمامة.

دخلت البيت.. كان أبي جالساً ينتظرني.

أنا: لماذا هوزان يصبح طبيباً للثورة وأنا لا؟

أبي: لستُ مستعداً للتضحية بأولادي الاثنين في سوريا.

أنا: هل تريد أن تقنعني أنك خائف عليّ أكثر من ابنك الوحيد.

أبي: أنتما الاثنان ولداي.. وأنا لا أفرق بينكما.

أنا: والآن تتكلم هذا الكلام بعد ما تركتني أتأمل، سميتني قتيبة أي سريع الغضب.. وتصرفك هذا أوصلني للجنون.. وليس للغضب فقط.

أبي: لست أنا من سماك قتيبة، ولم أدفع لك دولاراً واحداً.

أنا: إذاً من؟

أبي: أعطني حبة القلب يا أم هوزان.

وأنت اذهب.. وثبت تسجيلك بكلية الاقتصاد وإدارة الأعمال؛ لأن المال تحول إلى هناك.

أنا: أيّ اقتصاد وأي أعمال هذه التي سأديرها.. من يدير حياتي ويتلاعب فيها!؟

سكت الجميع وانسحبوا إلى غرفهم، كان الكل يعرف إلا أنا.

وأتممت سنواتي الجامعية الأربع بعد يأسٍ تام من معرفة الجواب.

مراعاة مشاعر

٢٢ – ٨ – ٢٠١٩

استشهاد ٥ مدنيين..

قصف مشفى ميداني..

سيطرة النظام على خان شيخون..

كادت الأثقال تقع على قدمي من شدة الانفعال.

هوزان: لماذا تستغرب يا قتيبة هذه الهزائم؟ لا دعماً عسكرياً.. لا وحدة.. لا تخطيطاً.. لا قائداً.

أنا: لم يعد لي رغبة بالتدرب.

هوزان: والمال الذي دفعناه!

أنا: هل هذا كل ما يهمك؟!

بكل الأحوال تأخرت كثيراً عن البيت، يجب أن أعرف رأي أمي بالعروس.

هوزان: ما زلت مصراً على لميس، يا ليتها تشبه لميس التركية قليلاً وأهلها متكبرون.

أنا: تجاوزت حدودك.. لا يهمني الجمال كثيراً.. المهم أن أكون مع زوجة تناسبني.. ولماذا ليتكبروا عليّ.. نظرت للمرآة.. كان التباين بين سواد عيوني وشعري ولحيتي مع بياض بشرتي يمنحني جمالاً مبهراً.. خاصةً مع جسم رياضي قوي.

كان موعدنا الثاني مع أهل لميس في اليوم التالي.

-رأيتها بوضوح، حقيقة لم أشعر بشيء تجاهها لا إيجابي ولا سلبي، شعور عادي مثلما أشعر عندما أرى هوزان أو ياسين.

لكن بكل الأحوال، الحب بالنسبة لي ليس بالأمر المهم كثيراً.

المهم.. أن يكون عندي عائلة حقيقية وأولاد يحملون اسمي، وأفتخر بهم ويفتخرون بي.

والد لميس: نعم يا ابني.. لقد فهمت أنك يتيم ورباك الحجي والحجة حفظهما الله ، لكننا لا نعرف من أمك.. من أبوك؟

عذراً.. العرق دساس.. وماذا سنقول للناس إذا سألونا من أين صهركم؟

من على باب الجامع؟

إننا عائلة راقية جداً نترفع عما لا يليق بمستوانا.

خرجت من البيت غاضباً، ليس من الرفض بقدر الإهانة، وأمي وأبي يواسياني مثلما يفعلان في كل مرة؛ لأن كل العائلات الكريمة رفضت تزويجي.

هدية غريبة

عند عودتنا إلى المنزل، وجدنا أمام الباب علبةً صغيرةً حمراء اللون مزينةً بالورود البيضاء.

هوزان: الفتاة بالتأكيد غارقة بحبك، وأرسلت لك هذه الهدية؛ لتبقى متمسكاً بها رغماً عن أهلها.

صراحة.. الفكرة لم تعجبنِي كثيراً، وتمنيت أن تكون الهدية من فتاة أخرى.

أمي: ابني شيخ الشباب.. وألف بنت تتمناه.

فتحت العلبة.. وجدت داخلها زجاجة صغيرة ملفوفة بعناية، فتحتها! منظر الدم القاني الذي بداخلها، جمَّد الدم في عروقي.

تذكرتُ مشاركتي بنشاطات للثورة السورية، تذكرت اغتيال الناشطتين عروبة وحلا.

دم من هذا !!

اتصلت بياسين، وركضنا أنا وإياه وهوزان للمخفر.

مركز مكافحة الجريمة _ تورنتو:

أنا: سيدي.. عدت إلى بيتي ووجدت زجاجة الدم أمام الباب.

عدل الضابط جلسته، وبدا الاهتمام على وجهه الخمسيني القدير.

الضابط الكندي: وصلك تهديد قبل هذه المرة؟

أنا: لا.. لكن أنا معارض للنظام.. وأشارك بحملات باللغة الفرنسية والإنكليزية.. لجمع التبرعات والتعريف بجرائم النظام.

الضابط الكندي: حسناً.. اكتب معلوماتك كاملة وأعطنا عينة من دمك، ولا تخف ستكون أنت وعائلتك تحت المراقبة الكاملة من قبلنا وسنقوم بمشاهدة كاميرات المراقبة القريبة..

بقينا في المخفر لليوم التالي بانتظار نتائج تحليل الدي إن إيه، لمحاولة الكشف عن هوية صاحب الهدية، وإذا كنت على معرفة به.

في الصباح ناداني الضابط بصوت غاضب، وأمسكني من يدي دافعاً إياي إلى خارج المخفر.

الضابط: في المرة القادمة.. عندما تطلب أمك تحليل دم أو بول أو براز تذهب إلى أقرب مختبر من بيتك ولا تتظارف أنت وأصدقاؤك على الشرطة الكندية.

أنا: كيف دم أمي؟ عن ماذا تتكلم؟

الضابط: هل تظن الشرطة غبية؟ هذا دم أمك.. تطابق الحمض النووي مع دمك.. هيا بسرعة.. انشر مقلبك السخيف بالشرطة على الأنستغرام واليوتيوب.. التافهون الذين يحظون بآلاف المشاهدات ليسوا أفضل منك.

مشيت بالشارع، وأنا مثل السكارى.

أمي !!!

لم أذهب إلى الكلية، كنت أجلس طوال الوقت أراقب أمي وهي تطبخ.

أمي: هل حفظت المقادير جيداً إن شاء الله؟!

أنا: أمي لا تستهزئي بي، همي يكفيني وزيادة.

أمي: لماذا الهم يا ابني.. والله هذه بشارة خير أن أهلك أحياء.

قتيبة: وماذا يهم، أنا لا أبدلك ولا أبدل أبي بأحد، أنتم من أفنيتم نفسيكما بتربيتي، لكن قصة الدم لا تدخل عقلي، إذا أرادوا اللقاء بعد كل هذه السنين، فليأتوا أو يرسلوا رسالة، لكن قنينة دم! أي نوع من الأهل أهلي.

سألت بخجل ولأول مرة: ماذا قالوا لكم في دار اللقطاء عني؟

أمي: قالوا لنا أن اسمك قتيبة.. وتاريخ ميلادك ومعلومة واحدة فقط.

أنا: ما هي؟

أمي: قالوا لنا أنهم وجدوا في دمك أثناء التحاليل آثار نوعين من مضادات الاكتئاب، من الواضح أن أمك كانت تعاني كثيراً خلال حملها.

أنا: كانت تفكر بهذا الأمر قبل أن تتسلى.

أمي: أنت تظلمها، الاحتمال الأكبر أن ما حدث كان رغماً عنها.

آخر ما يخطر على البال
٢٨ نيسان ١٩٩٣

مضى شهر منذ عودتي إلى فرنسا بشكل جيد نوعاً ما بمساعدة المهدئات، لم أكن أتكلم أبداً خلال هذه الفترة.

لكن مع بداية الشهر الثاني تغيرت حالتي للأسوأ.. القيء لم يعد يتوقف.. والدوار مستمر طوال الوقت.

زوجة عمي :لا تقلقي يا نور سنذهب للطبيب، ربما يجب علينا تغيير مضاد الاكتئاب.

و هكذا بدأ الكابوس ..

الطبيب: يجب عمل فحص عام للجسم، هل الفتاة سيدة أم عذراء؟

زوجة عمي: ما هذا الكلام؟ طبعاً عذراء.. نحن مسلمون، ولا نقيم علاقات قبل الزواج.

عملت التحاليل، طلب الطبيب عمل إيكو للرحم.

صوت النبضات.. الأيدي والأرجل الصغيرة.

الطبيب مع ابتسامة خبيثة : مبارك.. صبي.

عشر دقائق صمت تخيم على المكان.

ثم تمالكت زوجة عمي نفسها: هل يوجد إمكانية للإجهاض؟

الطبيب: لا الجنين متكون.

في سيارة الأجرة لم تتوقف زوجة عمي عن السؤال: كيف؟ متى؟ لماذا لم تتكلمي؟ كنا استطعنا حل الموضوع في بدايته، عندما تلدين.. سنرمي الطفل لأبيه، وليذهبا لجهنم معاً.

غاب الدم عن وجه عمي بعد سماعه الخبر..

تركنا وذهب توضأ؛ ليذهب عنه الغضب قليلاً.. وناداني:

من فعل هذا؟

لم أتكلم..

أعاد النداء بصراخ و نبرة تهديد ووعيد.

قلت وبصوت يرتجف:

باسل الأسد .

عمي: نور.. لا تكذبي.

انهمرت دموعي: والله إنه هو، و لو جاز لي القسم بتراب عائلتي المقتولة؛ لأقسمت ..لقد هدد أبي بي لينتزع الاعترافات منه ثم فعلها.

بعدها حاولت بكل الطرق الممكنة إجهاض الجنين.. وسائل تقليدية.. قرفة وزنجبيل.. أدوية.

لكن لا فائدة .. كان متشبثاً بالحياة تشبثي بالموت ..كأن الآلام تزيده قوة.

حتى قررت التوقف عن الطعام.

في المساء جاء عمي:

يومان لم تأكلي، ماذا يحدث لك هل جُننتِ؟! تريدين الانتحار.

أنا: أريد أن أموت.. ويموت ابن الحرام الذي بداخلي.

عمي: الذي تتكلمين عنه هو طفل ليس له ذنب، ثم هذه هدية لحافظ الأسد، يجب أن نعتني بها ونكبّرها ونعيدها له، وابتسم عمي ابتسامة واثقة.

في الأيام التالية، كانت عناية عمي بي وبالجنين غريبةً جداً:

تذكيري بالفيتامينات، الطعام الصحي، الراحة التامة.

وكأن الطفل القادم سيحمل اسم عائلتنا الراقية، وليس سينكس رأسها إلى الحضيض.

في هذه الفترة، كنت أسمع عمي يتكلم كثيراً عن تثبيت الطفل وطريقة إخراج جواز سفر له، مع اتصالات متتالية إلى كندا.

لم يكن الموضوع يهمني من قريبٍ أو بعيد.

كنت فرساً يحمل فارسه، ويوصله إلى غايته دون أي تدخل أو استفسار.

فجر ١١ /١١/ ١٩٩٣.

استيقظت على ألم يعصر رحمي وظهري، لقد حان وقت خروج الكائن الدخيل، لقد حان وقت انقطاع الخيط الذي يصلني بباسل وابنه.

غرفة الولادة تشبه غرفة التحقيق صراخ وعويل، وبقية الناس يتصرفون بشكل طبيعي؛ لكن الغرفة الأولى تقود إلى الحياة، والأخرى إلى الموت.

اشتد المخاض عليّ، ثم بدأت أشعر بخدر وصفاء مريح..

أبي: يللا يا ابنتي.. شدي الهمة.. إنها مجرد ولادة.

عمار: يللا يا دلوعة.. يكفي دلال.

ويد أمي كانت تمسد رأسي بحنان دون أن تنطق بأي كلمة، ولمساتها كانت تزيدني نعاساً واسترخاء. أغمضت عينيَّ على لمساتها الناعمة.. ثم صحوت فجأة على صوت بكاءٍ مزعج، حتى زيارة أهلي حرمتني منها يا ابن السلالة القذرة، خرج الوليد وقطع حبله السري، وقطعت شعرة معاوية بيني وبين باسل.

أسرع عمي وأخذ الرضيع.

إلى الآن لم أتجرَّأ على رؤية الطفل، كنت أخافه كما أخاف باسل.

لكن فضولي جعلني أنظر من نافذة المشفى؛ لأرى عمي يحمل رضيعاً صغيراً ضعيفاً يحاول التقام الغطاء، كلما اقترب من فمه.

نزلت من عيني دمعة وقلت لا إرادياً "استودعتك الله الذي لا تضيع ودائعه"، وبعد شهرين برد قلبي قليلاً بموت باسل بحادث سيارة.

صدمة

٢٠١٩

بعد التخرج أهدانا والدنا عمرة، لقد كانت أجمل هدية تغسل عن قلبي الحزن بعد تخرجي من فرع لم أستطع أن أحبه أبداً، وبعد رفض البنات اللواتي أحببتهنَّ وتقدمت لهنَّ الزواج منّي مراراً... كم دعوت أن أحصل على عائلة سعيدة وأن أعرف والديّ... قررت التصالح مع نفسي والقبول بهما مهما كانا.. المهم أن أعرف هذا اللغز الذي ينغص عليّ حياتي.

السلام يغمر قلوبنا المتعبة بعد انتهاء المناسك...

توجهنا إلى المبيت في الفندق؛ لنرتاح استعداداً للعودة صباح الغد..

في الليل.. بدأ هوزان بالتلوي والألم من أمعائه، أعطاني اسم مشفى نذهب إليه.

أنا: يا هوزان هذا اسمه وسواس المرض، يكفيك حب مضاد للتشنج وتعود بعد يومين إلى صحتك.

لن نجد سيارات أجرة في هذا الوقت المتأخر.

هوزان: إذاً اطلب سيارة إسعاف.

كدت أفقد عقلي من فرط الغضب.

أنا: سيارة إسعاف لأنك تشعر بألم بمعدتك! ألا ترى الناس في سوريا كم تكابد من آلام.

كنت أتكلم مع نفسي حيث كان هوزان يتكلم على الهاتف، ويعطي المشفى اسم الفندق.

وصلنا إلى المشفى..

واستلقى هوزان فوراً على السرير..

الطبيب: أجر وعافية إن شاء الله.

قالها الطبيب بلهجة دمشقية محببة.

التفت إليه.. طبيب في الخمسين من عمره، ولكن تحت عينيه قد خط الزمان خطوطه بقوة.

كان ينظر إليّ خلسة عدة مرات، حتى بدأت أشعر بالضيق.

الطبيب: هل من الممكن أن تتفضل معي أستاذ قتيبة؟

كيف عرف اسمي ! ربما هوزان أخبره دون أن انتبه.

أنا: طمني عن هوزان.

الطبيب: لا أستطيع شرح حالته إلا لفرد من عائلته.

أنا: أنا أخوه.

الطبيب: الكنية مختلفة.

حاولت أن أهدئ نفسي قليلاً.

أنا: أمه وأبوه ربياني.

الطبيب: ودرست إدارة أعمال بعد أن كانت رغبتك الطب، تتدرب في نادي القوة الرياضي، لا تحب أكل السمك.

أنا: كيف تعرف كل هذا عني؟

الطبيب: اجلس يا ابن اختي واهدأ ولا تخاف على هوزان، إنه يجلس في الغرفة الآن يشرب عصير ويشاهد المباراة.

وحكى لي قصة غريبة من قصص ألف ليلة وليلة...

أنا: هذه القصة التي حكيتها ولد صغير لن يصدقها.

أفضِّل أن أكون ابن حرام، على أن أكون ابن باسل الأسد.

_حقيقةً أنت الاثنان معاً ابن باسل وبالحرام.

أمك حية انظر لتاريخ اعتقالها.. وتاريخ قدومك إلى الدنيا المكتوب على الرداء الذي وجدوك ملفوفاً فيه مع اسمك.

ستعرف أنها حملت بك بالسجن.

اعمل تحليل دي إن إيه لتتأكد.

_ لست مضطراً أن أؤكد صلتي بأم رمتني ٢٦ سنة والآن تذكرتني، هل تشعر بالوحدة الآن؟ أم تريد من يعيلها؟ ماذا تريد مني بالضبط؟.

وبالمناسبة قصتكم جميلة تصلح لأن تكون رواية.

_ أمك لم ترمك، نحن أبعدناك عنها؛ لنحميك من باسل وحافظ.

هل تتخيل أن "باسل" سيترك نزوة تشوه الصورة المثالية المرسومة للفارس الشهم القوي.

أم أن "حافظ" سيتركك تسحب كل الأرصدة التي بالمليارات التي كانت باسم المقبور أبيك.

نحن أبعدناك آلاف الكيلومترات، لنحميك ولم نتركك، وهوزان وعائلته أعضاء بتنظيمنا لم نخترهم عبثاً لتربيتك، وكنا متكفلين بمصروفك من وقت قدومك إلى الدنيا.

أنا: ولماذا الآن وليس سابقاً قررت أن تقول لي هذا الكلام؟

الطبيب: بالبداية توقعنا أن تنجح الثورة بسهولة مثل مصر وليبيا.. وكنت أنت شاباً صغيراً جداً.. لسنا مضطرين أن نخاطر بك.

لكن الذي حدث بعدها أن الكفة مالت للنظام، مع حالة فوضى وقوى نفوذ متصارعة.

وبوسط هذه الفوضى.. نريدك أن تكون ورقتنا الأخيرة الرابحة التي لم نستعملها بعد.. الثائر الوحيد الذي يملك إرثاً بالمليارات.

- بغض النظر عن الغيظ والألف سؤال التي تدور برأسي الآن.

لكن أنا سأضع الجانب الشخصي جانباً، وأفدي ثورة الحرية بروحي.

- ومستعد أن تغامر لو نسبة النجاح واحداً بالمئة؟
- لو كانت واحداً بالألف.
- إذاً.. يجب أن تذهب إلى سوريا كمستثمر كندي كبير.
- والمال والاستثمار من أين؟
- عم أمك الذي توفي من سنة في باريس كان من قادة التنظيم المنحل، رصد مبلغاً كبيراً لخططنا، وأنت ستستخدم هذا المال.
- كيف سأستخدمه؟

- لا تسألني لأني لا أعرف.. الوضع في سوريا ضبابي ومتقلب.. وليس لنا جواسيس تنقل لنا الأسرار على الأرض منذ فترة طويلة.
- إذاً أنا مرسل بمهمة إسقاط النظام بخطة لا أعرفها، وإلى بلد لا أعرفه، ولأثبت نسبي لأب ميت لا أعرفه أيضاً.
- هل تستهزئ بي؟!
- أنت لست شخصاً عادياً، أنت حفيد ثعلبين وربيناك على الغالي.

عند عودتي من العمرة بقيت يومين ساكتاً واجماً في غرفتي.

لا أعرف على من أحقد... على أمي التي لم ترَني ولا مرة... أم على أبي المجرم الذي كان سبب وجودي، ولم يدر عن وجودي شيئاً.

أم على هوزان وأمه وأبيه الذين أخفوا عني الحقيقة وتركوني أكتوي بنار الحيرة سنين.

دخل والدي إلى غرفتي مساء اليوم الثاني، عانقني عناقاً شديداً، وهو الذي لم يعتد على إظهار عواطفه حتى لزوجته.

أبي: ضحت عائلتك كثيراً من أجل رؤية سوريا مختلفة، أمك هتكوا عرضها، جدك وأخوالك ضحوا بأرواحهم الطاهرة.

ألن تضحي قليلاً من أجل سوريا!؟

هل كنت تريد من أمك الحقيقية أن تضمك إلى صدرها حتى تقتلا معاً.

أم ترميك في دار اللقطاء في سوريا؛ لتتحول إلى شبيح بلا قلب.. هل هذا ما تريد؟

أعرف أن الصدمة قاسية عليك.. لكن لا أحد بيده تصحيح المسار إلا أنت.

أنت ستقلب الطاولة على آل الأسد.. وتنتقم من ظلمهم.

نم الآن.. ولا تفكر بشيء.. علينا الكثير لنفعله غداً.

عربي ـ كردي

في اليوم التالي أسست شركة وهمية كندية؛ لتصنيع المواد الغذائية برصيد١٥ مليون دولار، حُولت الأموال لي بطرق مختلفة من أبناء عم أمي في باريس، ومن خالي في السعودية.

لم أتكلم إلى الآن مع أمي الحقيقية، انتابني الفضول جداً لرؤية الضحية الحسناء، لكن كنت أبعد فضولي، لم أرد تشويش ذهني أبداً بأموري الشخصية.

وأثناء سيران جماعي للجالية السورية..

اقترح هوزان لعب التريكس..

هوزان وهافال ضدنا أنا وياسين..

بدأ اللعب لاحظ ياسين غشي المستمر.. حاول نكزي عدة مرات دون جدوى.

وكان الختايرية يراقبون اللعبة بضحك ومرح وتعليقات.

ربحنا اللعبة أنا وياسين، وبدأت الاستهزاء بفشل هوزان..

هوزان: لولا الغش ما كنت ربحت.

أنا: لم أغش.. ولماذا لم تتكلم فوراً طالما كشفتني من البداية أيها المنافق..

هوزان: لم أتكلم.. لأنه تصرف متوقع منك.. ولدنة الحرام تمشي بدمك.

أنا: هوزان أنت أخي احترم نفسك.

هوزان: إخوة هههههه.

أنا أمي فاطمة بنت لطفي.. وأبي عبد الله بن سرور.

أنت ابن أي راقصة.. وابن أي قواد.

ضربت هوزان كفاً، فقام أبو هوزان ودفعني.

الحاضرون: يا جماعة صلوا على النبي.. استهدوا بالرحمن ماذا حدث لكم؟ أنتم أهل.

أبو هوزان: أهل ماذا! وابني يضرب كفاً أمامي، راعينا مشاعرك.. أزلنا اللقمة من فمنا ووضعناها بفمك.. وكنا نقول سيصبح شاباً صالحاً.. ونأخذ فيه أجراً.. لكن عبثاً الدم النجس سيبقى نجساً.

ضب أغراضك.. وانقلع من منزلي.

أنا: أنتم الكرد من يوم يومكم عملاء، لا يوجد كردي جيد بشار أفضل منكم.

أبو هوزان: إذاً انقلع إلى حضن الوطن.

أنا: وهذا الذي سيحدث.

فشلت كل الوساطات للصلح، عدنا إلى البيت، الباب كان سينخلع من قوة الإغلاق.

بالبيت تعانقنا أنا وهوزان، وصرت أقبله مكان الكف.

هوزان وهو يضحك: ابتعد عني، لا أحب التقبيل، ثم شدني مرة ثانية، وعانقني عناقاً طويلاً.

قبلت يد أبي بصعوبة، بعد أن سحبتها من على عينيه الدامعتين، أما يدا أمي، فلم أشبع من تقبيلهما، حتى وجدت نفسي أهوي إلى القدمين.

مثلث برمودا

حجزت على الدرجة الأولى، كيف لا وأنا تاجر الحرب الشاطر الذي سأستثمر في البلد التي هرب منها كل المستثمرين.

الرجاء من الركاب الكرام ربط أحزمة الأمان، ستهبط الطائرة بعد قليل.

تذكرت رحلة اليومين التي أتتها أمي إلى دمشق؛ لتعود حاملة أثقل وأقذر هدية يمكن أن يحملها إنسان.

سأرى لأول مرة المكان الذي زرعت فيه علقة ممزوجة من دم الضحية والجلاد. الخطوات واضحة في ذهني، لكن ماذا عن التطبيق في دولة الغاب.

ركبت السيارة إلى فندق الفورسيزن، لم أكن أحاول رؤية دمشق بقدر ما أحدق بوجوه الناس، حيث تغيب الابتسامات.. تشرد العيون.. تنحني الأكتاف من ثقل الهموم والبؤس.

وصلت إلى الفورسيزن ونظرت من الشرفة.

فخامة وبرجوازية منقطعة النظير، وانفصال تام عن واقع فقير بعيد مسافة أقدام عن الفندق.

ذكرني المشهد بماري أنطوانيت وقصرها العاجي، عندما نصحت الشعب بأكل الكيك إذا لم يجدوا الخبز.

لماذا لا أرى دمشق كيف تبدو من الأعلى؟ خرجت إلى الشرفة..

الجبل البعيد المحيط بدمشق مثل إكليل الغار المزروع بالبيوت الصغيرة العشوائية بالتأكيد قاسيون، أما الساقية الصغيرة القذرة بجوار الفندق الممتدة بشكل كبير كانت صدمتي عظيمة عندما علمت من جوجل أن هذه الساقية الضحلة ماهي إلا بردى الشعراء والمغنيين.

صحوت من شرودي وقررت عدم التأخر..

اتصلت بمدير غرفة تجارة دمشق "غسان القلاع".

حولت السكرتيرة الاتصال فوراً له، بعد أن عرفت بنفسي.

- أهلاً أهلاً سيد قتيبة.

الحمد لله على السلامة.. نورت البلد بوجود المستثمرين الشرفاء أمثالك.

- شكراً لك.. هذا أقل الواجب.. أتمنى الالتقاء بحضرتكم بأقرب فرصة.. لأطرح مشاريعي.
- بكل تأكيد.. هل من الممكن أن تتفضل لعندنا الساعة ٧ إلى غرفة تجارة وصناعة دمشق؟
- طبعاً.
- السيارة ستكون بانتظارك عند باب الفورسيزن.

انتهت المكالمة ولسان حال صاحبها يقول: يا لشوقنا لرؤية المستثمر الغبي. الذي سيستثمر ١٠ مليون دولار في وقت العملة السورية تحاول جاهدة أن تثبت على سعر صرف ٧٥٠ ليرة للدولار الواحد ولا تقدر.

الساعة السابعة.. دخلت إلى القاعة الفخمة الباردة برود الموقف، وجدت جميع حيتان السوق الذين اقترح عليّ خالي التواصل معهم: سامر الفوز، رامي الحرامي، بعض أفراد عائلة قاطرجي.

سامر: ما الاستثمار الذي تفكر عمله بمبلغ ١٠ مليون دولار فقط في بلد بنيتها التحتية مدمرة.

أنا: هذه ستكون البداية فقط، هذا المشروع بوابة لجذب الاستثمار الكندي والأمريكي إلى سوريا.

رامي: لماذا ترغب بالاستثمار خارج كندا؟

أنا: استثماري في كندا جيد جداً؛ ولكني بحاجة إلى منتجات زراعية موجودة هنا بسعر زهيد.

قاطرجي: ما المشروع الذي ستقيمه هنا؟

أنا: زراعة وتصنيع الأعشاب الطبية الموجودة بكثرة هنا وتصديرها إلى كندا.

سامر الفوز: سنعطيك ورقة فيها الضرائب والمستحقات على الصناعة والتصدير.

عدت إلى الفندق وفتحت الورقة: الضرائب ٤٠ بالمئة من صافي الأرباح مع تعهد بالحماية.

لا مشكلة أيها اللصوص.

الرقص مع الضباع

معقل النظام والشبيحة –اللاذقية

اشتريت معملاً ضخماً وأراضٍ زراعية باللاذقية، كونها الوحيدة التي نجت من تلوث كيماوي النظام وألغامه، ولغاية في نفس يعقوب تعرفونها طبعاً.

أحتاج إلى ألفي عامل...

ورقة الأسماء مازالت في جيب سروالي الداخلي.

من أول يوم في الثورة إلى يومنا الحالي، لم أفهم لماذا تقوم تنسيقيات الثورة بكتابة أسماء الشبيحة الذين يتمشون جهاراً نهاراً، متباهين بأعمالهم الإجرامية ويعرفهم الجميع.

لكني اليوم فعلاً أحتاج هذه الأسماء..

الفئة المجرمة باقية بلا عمل بعد سيطرة النظام على أغلب المناطق ومع رواتب لا تسد حاجة أجسادهم التي تشبه مقاتلي الساموراي.

جمعت شتاتهم من أرجاء سوريا، وبدؤوا العمل برواتب مجزية.

بحكم دراستي، وضعت خطة محكمة لسير الإنتاج وأوكلت مهمة الإشراف على المعمل لشاب خريج معهد (تسويق وإدارة) طموح.

وجلست في مكتبي في الطابق الثاني مع كاميرات المراقبة، وأجهزة التنصت التي كانت تعمل ليل نهار.

ولا أستطيع التكلم عن كمية القرف التي كنت مضطراً لسماعها من الكفر والألفاظ النابية وقصص الإجرام بالمدنيين التي تقشعر لها الأبدان، وهي تروى بطريقة فكاهية تمثيلية تنهمر معها دموع الشبيحة من الضحك، انتخبت بعد سماع كل هذه المحادثات ٣٠ شخصاً من أكثر الناس استخفافاً ببشار، ومن المخيبة آمالهم بماهر وكاريزماه الفارغة.

وفي المساء دعوتهم للعشاء والسهر معي.

تناولنا الدجاج المشوي على نشاز وفيق حبيب وعائلة الديكة التي كانت تصيح في معملي طوال النهار، ولم أسلم منها حتى عند تناول عشائي وعندما سألتهم عن سبب حبهم الشديد لهذه الأغاني كان جوابهم لا يخطر على بال أي ناقد فني: لأنها تطربنا مثل أنين المعتقلين وصراخ المغتصبات.

لقد كنت المسلم السنّي الوحيد بينهم؛ لذلك لا بد من الحذر لمد أواصر الصلة والصداقة مع أكثر فئات المجتمع طائفية.

أبو علي: شكراً حبيب على الدعوة.. أفضالك علينا لا تعد.

أبو حسين: والله الشغل متوقف.. ولم يعد أحد يذكرنا.. أو يذكر فضلنا وتعبنا في الأزمة.

أبو حيدرة: الإرهاب لم يترك حجراً على حجر بهذا البلد ..كدنا نموت من الجوع والقهر لولاك سيدنا.

أنا: لستم بحاجة إلى هذه الرسميات اعتبروني واحداً منكم.

علي: أنا اشتغلت بالدفاع المدني (بالتشبيح) سنتين بالشام.. والله إنكم جماعة أكابر وأثرياء.

أنا: لكن أنا لست دمشقياً.

حسين باندهاش: إذاً من أين؟

ثبتت كاسات الخمر بالأيادي، وتوجهت أنظار ثلاثين ثعلباً إلي.

قلت لهم: أنا نفسي لا أعرف، لكن أعرف أنهم وجدوني على باب المسجد، وكانت أول وآخر مرة أدخل فيها المسجد ..هذا سر شخصي لولا ثقتي الشديدة بكم لما أخبرتكم به..

أبو محسن مبتهجاً: يا جماعة! الرجل صاحبنا ونحن ظنناه شامياً سنياً.

أبو علي: ومن الممكن أن يكون ابن واحد منا.

وتعالت الضحكات.

أمسكت السكين بسرعة، وغززتها بالبرتقالة التي أمامي، وبدأت أنظر لها بتركيز شديد؛ لأشتت غيظي، وأحاول تصنع الابتسامة.

أنا: كيف أكون ابنكم.. وأنا قريب من عمركم، اعتبروني أخوكم وصاحبكم.

علف

العقيد حيدر: الشاب غبي ومعه مال قارون، وسيحضر مستثمرين للبلد لم نكن نحلم بهم.

ماهر الأسد: وما هذه المصادفة.. كل العمال شبيحة سابقين.

العقيد حيدر: وهل نحن قادرون على تشغيلهم وعَلفِهِم؟ مهما كان يخطط يحل أمره ببرميلين متفجرين على معمليه يحولونه وشبيحته ومخططاته إلى رماد.

ماهر: لا أعرف.. أنا غير مطمئن.

حيدر: تحريت عنه جيداً.. لا يغرك الدراسة واللباقة واللهجة الشامية.. الرجل ابن زنا ..لا أم ولا أب ولا أصل، أي من جَوِّنا وبيئتنا.

ماهر: من جوِّك وبيئتك وحدك يا حيوان.

جس نبض

ذاع صيت معملي، وشرعت بفتح معمل جديد لم أُدخل إليه إلا من يرشحهم لي عمال المعمل الأول.

وهكذا أصبح لدي معملان ضخمان يضمان قرابة ٢٠ ألف عامل ومزارع، عفواً شبيح.

تفرغت في غرفتي؛ لتسجيل جميع ما أسمع عن عصابات السلاح المتناحرة في اللاذقية وتجار الحشيش وخلافاتهم، وأعد دراستي حول قوة ومتانة كل فئة منهم.

زادت الصلة هذه الفترة كثيراً بيني وبين شبيحة معملي، الذين كنت أتجرع الصبر عند لقائهم.

وكم اضطررت لتدريب نفسي على تمارين الاسترخاء.

وكان موعدنا الأسبوعي الدائم سهرة الخميس قبل الإجازة.

جلسنا على المنحدر الصخري المطل على بحر اللاذقية الهادئ.

كان الجو رومانسياً خيالياً لا ينغصه إلا وجود ثلاثين شبيحاً حولي.

انتهت الوحوش من التهام المشاوي، وبدأ صب كاسات الخمر.

أما أنا فلا أشرب الخمر إلا من زجاجتي الفاخرة المحتوية على كولا بنكهة التفاح.

بدأنا الحديث عن الأوضاع، كان بعض منهم كبار السن نوعاً ما.

أنا: في فترة غربتي سمعت أن "بشار الأسد" لم يكن خيار المرحوم حافظ الأول للحكم، كان له ابن آخر يُدعى "باسل".

سمعت تنهيدات وترحماً على روحه.

-حسين: لو كان حياً.. ما كنا وصلنا لهذا الحال اليوم.

-أنا: لهذه الدرجة!

حسين: وأكثر.

أنا: برأيي أن بشار عمل كل ما بإمكانه عمله حتى أنه عندما عجز لم يستسلم، بل استعان بالروس والإيرانيين والميليشيات الشيعية.

أبو حيدر: هذه الجملة التي قلتها جلبت علينا مصائب أضعاف ما جلبت للمعارضة والجيش الحر.

إن المقاتل من المرتزقة الذين ذكرتهم يأخذ راتب عشر أشخاص منا، مع تأمين لعائلته بعد الممات، أما نحن فمن يصاب منا يرمى بالضيعة مثل الكلب، وتُعوض عائلته بساعة حائط أو علب مربى.

إسماعيل: لا ينتظروننا حتى نصاب... عندما تنتهي مهمتنا نُرمى مثل الأحذية القديمة ...لا عملاً لا رواتباً، الشرطة الروسية والإيرانية وحزب الله يمسكون كل شيء في البلد.

أبو حيدر: هرّب المسؤلون أولادهم خارج البلاد مع المليارات، وتركونا مع الذل والفقر مع حقد شعب كامل علينا.

أنا: لكن ما علاقة "باسل الأسد" بكل هذه القصص.

سليمان: لوكان موجوداً.. لما فكر أحد بالثورة ضد الفارس المهاب.. الشخصية الفولاذية.. المتربي بالجيش.. وليس مثل هذا الدكتور الغبي القادم من بريطانيا ،المدارة حياته من قبل زوجته الحمصية.

حيدر: وليس أغبى منه إلا حافظ ابنه.

وتعالت ضحكات السخرية متذكرةً مشاركته بأولمبياد الرياضيات.

علي: لكن ماذا يفيد الندم الآن.. "باسل" مات ولا ولد له ولا بديل.

أنا: وماذا عن "ماهر الأسد"؟

محسن: لقد رأينا فيه ببداية الأزمة روح "باسل".. لكن تبيّن أنه أتفه من هذا.

خضر: توقعنا أن يأخذ الحكم من أخيه الأهبل.. ويدير البلد منذ زمن طويل.. أو على الأقل يظهر ويخطب بالجنود وبالناس.

أبو حسين: هل يعقل أن يكون أخرساً؟

أبو علي: ربما.. لم نسمع صوته ولا مرة.

خضر: أو يكون جباناً.. لا يجرؤ على الوقوف أمام الكاميرا.

حيدر: دعونا ننسى هذه الأيام السوداء ونتذكر أيام عزنا الخالية.

خضر: بشرفك اذكر قصتك مع المرأة الحلبية.. والله لو أسمعها مئة مرة لا أمل منها.

تعالت أصوات الضحك والتأييد : هيا يا حيدر .

وملؤوا كئوسهم استعداداً لسماع القصة.

حيدر : هذه القصة حصلت قبل عدة سنوات أثناء اقتحامنا لأحد أحياء حلب الثرية، دخلنا أحد المنازل، لم نجد فيه إلا امرأة منقبة بالأسود مع صبيين بالعاشرة من عمرهما بشعر أشقر ذهبي.

فتش الجنود المنزل جيداً، وأخذو كل الأثاث

ولم أجد شيئاً له قيمة.

لذلك قررت أن لا يكون مجيئي بلا فائدة، وأن أروّح عن نفسي قليلاً.

رفعت الحجاب عن رأسها وهي تصرخ وتستنجد، وهنا كانت المفاجأة السارة ..لقد خبئت اللصة الإرهابية السلاسل والأساور بشعرها الذهبي.

أما النكتة فهي كيف أعطتني الذهب .

أنا: كيف؟

حيدر : صفعتها كفاً فسقط السوار أرضاً ثم كفاً آخر فسقط العقد.. وهكذا مع كل كف هدية ذهبية لي، حتى انتهى الذهب.

سليمان : لعن الله والديك يا حيدر.. سيتوقف قلبي من الضحك.

لكن بالله عليك أخبرني كيف كان ردة فعلها وأنت تفعل هذا.

حيدر بضحك: لقد كانت تصرخ مثل المومسة المسروقة منها أجرتها.

(ألم الضحية وعذابها هو أهم عنصر في القصة لدى مسوخ النظام)

علي ضاحكاً: يا لذكائك يا ابن القذرة.

أنا باستنكار : وأين الذكاء في الموضوع؟!

فُتحت العيون على مصراعيها استهجانا!

أنا: يعني أقصد أن.. أن.. من الأسهل كان لك أن ترفع السلاح عليها وتهددها إذا لم تخرج الذهب.

حيدر: لا أحب العمل دون فن وإبداع.

علي: لماذا اكتفيت بسحب حجابها أيها الأحمق.. لماذا لم تفتشها كلها؟

حيدر بغضب: كدت أفعل ذلك لولا أن هجم كلاب الجيش الحر على الحي.

خضر: كيف كان جمالها؟

حيدر: لقد كان يدير الرأس مثل كأس فودكا مع سيجار حشيش.

عندما حررنا حلب، بحثت عنها ولكن علمت أنها قد هربت إلى تركيا.

من أنا؟!

في اليوم التالي بعد انتهاء يوم عملٍ مقرف... صعدت إلى غرفتي وأخذت حماماً ساخناً علني أسترخي به قليلاً،ارتميت على سريري أفكر... أنا تائه تماماً... لا أعرف كيف أتصرف ولا من أستشير.

أشعر أنني أدور في حلقة مفرغة تحيط بي وحوش النظام من كل جانب، يجب أن أقوم بالخطوة التالية لكن يا ترى متى وكيف.

زاد قسوة تفكيري برودة كانون وأمطاره المنهمرة سيولاً من على الجبال المنحدرة، نظرت من نافذتي علّني أرى شيئاً يخفف عني وحشتي.. لكن لاشيء إلا أشباح شجر الحور والسنديان تكاد تتكسر من قوة الرياح العاتية مع عويل صفيرها القادم من الوديان الخاوية، ضاربةً في عمق البحر.. جامعة مياهه أعاصير تصل البحر بالسماء.. غيوم سوداء قاتمة تحجب أي خيط يتسلل من أشعة البدر ليعم ظلام لا يكشفه إلا سنا البرق الخاطف.

هنا تمنيت أن ألمحها ولو لمرة واحدة، حنينٌ شديدٌ لعينيها البنيتين الدافئة، وابتسامتها الناعمة الخجولة التي لن يكسر قتامة أجوائي سواها، ولن يهدئ عواصف عقلي غيرها، لا أعرف كيف خلق هذا الحنين، أنا نفسي استنكرت مشاعري المباغتة التي لم تولد حتى عندما كانت تبعد عني أمتاراً قليلة، بل لم أعبأ برؤيتها حتى..

ربما هي مجرد مشاعر شتاء بارد عابرة لشاب وحيدٍ غريبٍ في وطنه.
لو تمّت خطبتنا ولم يعارض والدها كنت الآن أحادثها، وأسمع صوتها الناعم.. صحيح..
لم أسمع صوتها ولا مرة ولا أعلم كيف يبدو ... هل هو رقيق مثل شكلها أم جدي مثل تصرفاتها؟!.. الفضول ينتابني بشدة لا تقاوم..
فتحت صفحتها على الإنستغرام للمرة الأولى ...الصورة الشخصية غابت عنها العيون البنية الدافئة، وتلونت بعيون زرقاء اصطناعية جامدة تحدق بقوة مثل الدمى.
المعلومات ذاتها.. أعرفها كلها.. لا جديد
صور مع صديقاتها.. صور في حديقة الجامعة.. صورة مع زميلي الكريه سعيد مع ابتسامة عريضة.. تاريخ التقاط الصورة بعد سفري بأسبوعٍ تقريباً.. عدت بالصور إلى الوراء لأفهم سبب الصورة..
الصور التالية لخواتم الخطوبة بالأيادي المتشابكة!!...
ماهذا الغباء؟! لم يقبل والدك بي ولكن قبل بأكبر محتال بين السوريين بكندا صهراً لائقاً لعائلتكم العريقة، كي يؤسس بيت الزوجية حجرة فوق حجرة باستغلاله للاجئين الجدد.
ربما أجبرها أبوها المتكبر بسبب غنى سعيد ولسان الأفعى المعسول الذي يملكه..إنها ضحية بريئة ، يجب أن يعرفوا أفعاله..
لن أدع الأمر يمضي هكذا. لم يتورع حتى عن الاحتيال منذ سنتين على "ياسين" الشاب الحمصي الصغير ابن السابعة عشرة القادم من معتقلات الموت، ولم

يشفق على والديه الذين دفعوا آلاف الدولارات لإخراجه من المعتقل، ثم تسفيره إلى كندا، كانت هذه القصة بداية صداقتنا أنا وهوزان مع ياسين ضيف مائدة أمي الدائم وبمثابة أخينا الأصغر الذي لم ير والديه بعد خروجه من الاعتقال وتهريبه، كان شعور العناية به ممتع ومحزن بنفس الوقت بسبب أمراض ياسين التي لا تعد ولا تحصى .

تغلبت عاطفتي على كل مسلمات عقلي، واتصلت بياسين، أرجو أن تكون صاحياً في هذا الوقت..

رد علي ياسين بصوت شبه نائم.

- من يتكلم؟.

ياسين: صباح الخير أنا قتيبة.

ياسين صحا فجأة من منامه: قتيبة ماذا حدث هل أنت بخير؟

- نعم أنا بخير..
- هل تتذكر سعيد النصاب؟
- طبعا ماذا به؟
- لقد خطب لميس؟
- قتيبة هل تمزح؟
- لا أمزح انظر إلى صفحتها .
- هل تمزح.. أنك اتصلت بي من أجل هذا... هل جننت يا قتيبة.

فليذهبان معا إلى جهنم.. إن شاء الله خاتمة الأفراح.

- توقف يا أخي أنا أظن أنه خدعهم لو أبلغتهم.

يكفي يا قتيبة..لقد كانت هي وصديقتها من دلاني عليك لحل مشكلة احتياله عليّ..

أنهيت مكالمتي المتهورة مع ياسين وعدت أنظر إلى عينيها في الصور، علني أجد ما يدلني على إجبارها على الزواج ...لكن سعادتها كانت تنعكس بشدة على ملامحها في صور الخطوبة، أحسنت يا قتيبة ..هيا ضحي بروحك كي تعود لميس مع سعيد وأولادهما إلى حضن الوطن بأمان، ويعود والدها إلى منزله الفخم بحي المالكي ..ويلتم شمله مع عائلته الراقية بأمان.

إنك تستحق كلام والدها وإهانته، لقد أجدت دور الضحية ليلازمك طوال عمرك، أزحت عن ذهني الوسواس الملِح المزعج، أردت بهذه اللحظة أمراً يشدد أزري ويثبتني على طريقي وينسيني قصة حبي الفاشلة التي انتهت حيث بدأت. أمي الحبيبة.. لمسة منها تنسيني همومي وآلامي.. مهما كبرت لا أملّ من اللجوء إلى حضنها، لن أسبب لها أي متاعب، سأكتفي برؤية صورها على صفحتها..أرجو أن تكون متمالكة نفسها بعد غيابي، أنا أثق بهوزان وقدرته على مواساتها، فتحت حسابها على الإنستغرام.. لتبادرني صورة العروسين يتوسطان أمي وأبي وهوزان مع ابتسامة فرح تعلو الوجوه ..مذيلة بأرق عبارات التهاني والمباركات للعروسين وأهلهما.

بهذه السرعة مددتِ يد العفو لمن أهانني واستهزأ بي، سابع يوم من ذهابي إلى الجحيم تروّحين عن نفسك بحضور خطوبة من مسح بكرامتي الأرض..

أم البحث عن عروس للطبيب هوزان _ابنك الوحيد_ قد أسلاك عن أي هم آخر.

لهذه الدرجة قد هنت عليك؟

يالزيف العالم الذي أعيش فيه ...ويا لجماله المصطنع، ربتني أسرة حددها التنظيم سابقا.. لم أعد أعرف حقيقة مشاعرهم تجاهي الآن، اختار من بقي من التنظيم البائد كليتي.

أعطوني مهمة خطيرة في بلد لا أعرفه ، لكن لماذا يجب أن أكون دائما مثل دمى المسرح بين أصابعهم، لماذا يجب أن أرى دائما الأمور بمنظاركم ..أنتم الذين لاترون إلا مصالحكم، ما الفرق بين أبو محمد الدمشقي وأبو لميس الدمشقي، أليس كلاهما ابني العائلات الراقية، وربما كانت أمي فتاة متكبرة لا تختلف عن لميس، مرغ باسل القروي أنفها وأنف عائلتها بالتراب.. يا اااا الله.. أستغفر الله.. ماهذا الكلام.. وهل يتكلم الابن عن أمه هكذا.. وهل التكبر وغيره يبرر التسلط على أعراض الناس وانتهاكها! لكن يا رجل القصة أصبحت قديمة يعلوها الغبار... فلماذا لتتعاطف مع من لا يتعاطف معك، خذ المال وعد إلى كندا، واجعل الشركة الوهمية حقيقية، ولينطحوا رؤوسهم حتى تنكسر بالحيطان، وإذا لديهم إثبات على ملكيتها فليذهبوا إلى المحاكم.

أليس هذا مثل أفعال سعيد الذي يشاركونه أفراحه، ولأتزوج أنا من تفوق لميس جمالاً ومكانة، وليعلم والدها ماذا أضاع من يده.. لكن مهلاً ..أليست هذه سرقة ومال حرام، إن مشاعري مضطربة تماماً مثل عواصف الليل لاتهدئ. بدايةً كنت مفتقداً للأُنس والمحبة، ولكنني الآن افتقد الدافع و الهوية، وكل شيء، وأخاف أن أضيع البوصلة.

رن منبه الساعة الخامسة فجراً لوقت الصلاة، وأنا مازلت صاحياً، صليت الفجر وجلست انتظر شبيحة معملي الذين بدأت أخشى الانتماء إليهم في يوم من الأيام!

خروج الأسد من عرينه

بدأ شبيحة معملي سرد ذكرياتهم الإجرامية المعتادة، لم أكن أصغي باهتمام، كنت غارقاً بحيرتي وغيظي من خزي ليلة الأمس، إلى أن بدأ الشبيح حيدر بالتفاخر بمشاركته بتعذيب وقتل أطفال درعا، توقّفَت هنا كل وساوسي وحيرتي، وبدأ يحوم حولي آلاف الملائكة الصغار شهداءً وجرحى، لاجئين ومعتقلين كانوا ليضيؤوا ظلمة عالمنا لو تركهم السفاح بحالهم، لقد نفخ أطفال درعا برماد الثورة الموجود في كياني حتى ألهب من جديد.

سمعت قصصاً كثيرة من الشبيحة، وعاهدت نفسي على ضبط النفس، لكن هذه القصة بقيت أسبوعاً تلحّ على ذهني.. مهما أصرفها وأتناساها تعود من جديد.

بعد انتهاء العمال، أبقيت حيدر حتى ساعة متأخرة بإعطائه مهمات إضافية. شغلت التلفاز بغرفتي بأعلى صوت ممكن، وتركت الحراس في أماكنهم لدفع الشك عني.

وعند خروجه من المعمل، تسللت من نافذتي، وقمت باللحاق به، تركت مسافة جيدة بيني وبينه.

كان الليل مظلماً في الأحراج لدرجة لا تطاق، كان ابن الجبل يهتدي لطريقه بسهولة، أما أنا فكنت أهتدي إليه عن طريق صوته، وهو يغني أغاني علي الديك التافهة.

طل الصبح ولك علوش ...سبقونا ها الحصادة. (سيطل الصبح على آل الأسد وديكهم في قصورهم ..لكن لن يطل عليك.)

بدأت أرى شبحه بشكل أفضل مع اقترابنا قليلاً من الشارع العام.

أطلقت الرصاصة الأولى من مسدس كاتم للصوت على رجله وقع أرضاً، وهو يتأوه ويكفر، فتح عينيه على آخرهما عند رؤيتي.

حيدر: سيدي ماذا حصل؟

أنا: هدية من المعتقلين، ثم أطلقت الثانية على يده.

– أما هذه التصويبة، فمن أنامل أطفال درعا المقتلعة أظافرهم.

أما الثالثة فمني أنا شخصياً.

رفعت المسدس لأطلق الرصاصة الأخيرة على قلب الشبيح الذي لا قلب له، لكن صوت خطوات من بعيد أوقفني، هل تبعني أحد أصدقائه؟!

ابتعدت قليلاً عن حيدر، وبدأت أراقب من خلف إحدى الأشجار ..بعد قليل، سمعت صوت تنفس خافت سريع خلفي، التفت بسرعة، شعرت بشيء ثقيل يهوي على رأسي، ثم غبت عن الوعي.

(يللا يا شباب انطقوا الشهادتين.. نريد عمل عملية انغماسية بجيش النظام.. الله أكبر.. الله أكبر، مقاتلي الجيش الحر يكبرون بحماس، رغم أصوات القصف القوية، المقاتل الذي بجانبي، يقول لي: قرررردد ليش ما عم تكبر.. ما القصة لماذا يتكلم الجيش الحر لهجة الشبيحة الساحلية).

بدأت أصحو من حلمي مع ألم شديد في رأسي، موثق اليدين داخل سيارة عسكرية، والسائق والمرافق كانا عناصر من جيش النظام.

لقد انتهى أمري، بالتأكيد سمعوا كل شيء، يا لغبائي، ما الفرق بيني وبين خالي عمار.

أغمضت عينيَّ لأتخيل وجه أمي وأبي وهوزان، هل سأراكم مرة أخرى يا ترى، أم سأعود للسجن الذي بُذِرتُ فيه وأعذَّب وأُغتصَب وأقتل وأشعر بشعور أمي الحقيقية التي ظلمتها، وقلبي يرفض مسامحتها على تَركي.

توقفت السيارة...

- يللا امش معنا..

جرود وجبال وآليات عسكرية متمترسة، لابد أني على تخوم إدلب عاصمة الثورة.

بعد قليل.. وقف رتل من السيارات العسكرية، ظننته رتل بشار لعظمته.

خرج عدد من العناصر الروس والسوريين المسلحين بالعتاد الكامل ثم خرج..

ابتسامة لا إرادية رسمت على وجهي، رغم صعوبة الموقف ..وتوقَّف عقلي عند كلمتين (النمر الوردي) سهيل الحسن!!

سهيل: أهلاً وسهلاً بالأستاذ قتيبة.

أنا: أهلاً سيادة العقيد.

على الرغم من عيشك بالغربة.. تعرفني وتعرف رتبتي (قالها بافتخار أمام جنوده)

أنا: وهل يخفى القمر؟!

أشار إلى الدبابات التي تقصف والطائرات، نحارب الإرهابيين ليل نهار، كلما نقتل واحداً، يولد عشرة، لكن بعد السيطرة على إدلب ليس لهم مكان يذهبون إليه، إلا أن يحفروا الأرض ويدفنوا أنفسهم أحياء.

نظرت للآليات وقلت بقلبي: آآآه ...كل قذيفة.. كم تيتم وترمل وتشوه.
بهذه اللحظة، تمنيت الهجوم عليه بيدي وخنقه أو أهجم على الطيار، وأخفف قليلاً من ألم أهلي في إدلب؛ لكن ... اصبر يا قتيبة قتل واحد لن يوقف الحرب الدموية.

سهيل: الطريقة التي أحضرناك بها لم تكن تليق بتاجر مثلك.. ولكن فعلنا ذلك من أجل حمايتك.

أنا: حمايتي مِن مَن؟

سهيل: سنذهب إلى مكتبي ونتكلم بهدوء.

على الرغم من حيرتي؛ لكني اطمئننت إلى عدم معرفة سهيل ورجاله ملابسات قتل الشبيح حيدر، لكن ماذا عن حيدر.. ماذا لو طلّ الصبح عليه.. ماذا لو أنقذه أحد.. لو تكلم؟!

إلهي أرجوك أن لا تمد لهذا الظالم أكثر.

العنزات الثلاث

دخلت المكتب كانت الديكورات غريبة .. سوداء قاتمة مع صوره وصور فلاديمير بوتين، غاب آل الأسد من الأب إلى الولد عن ديكور الغرفة تماماً.

سهيل: أنا أعرف تماماً سبب قدومك ومصالحك.

بلعت ريقي..

سهيل: وأعرف تماماً أنك لم تأت آلاف الكيلومترات من أجل استثمار يؤخذ منك نصفه.

تمالكت نفسي أكثر..

سهيل: ولا بمحض الصدفة جمعت آلاف الشبيحة من المحافظات.. وشغلتهم معك دوناً عن كل فئات الشعب.

سهيل: أنت أتيت قاصداً المجد والزعامة.. وأن تنفض غبار الذل الذي كنت تعيشه.. راقبتك مطولاً من بين كل المستثمرين.. ووجدت فيك الطموح الذي أبحث عنه.

أنا: مع احترامي لك يا سيادة العقيد ..لكن أنا مجرد مستثمر.. وأبحث عن بلد استثمار آخر وبلاد الحرب ميدان التاجر الشاطر.. ولا دليل لتوقعاتك عني.

سهيل: إذاً عندي لك صفقة يا كبير التجار.. إنني أخاطر بروحي وجيشي على جبهة إدلب وحماة.. لتوطيد حكم آل الأسد وأقربائهم القابعين في قصورهم ..وأبناؤهم بالخارج يترفهون بالمليارات.. هل هذا عدل؟

أنا: سيدي لماذا تتكلم معي في هذا! تكلم مع القيادة الروسية.. أنت ضابط بوتين المقرب في سوريا؟

سهيل: الروس لا يريدون أي بلبلة وتشقق بالصف، وخاصة بعد انشغال الفصائل الشيعية بالعراق ولبنان وإيران بالمظاهرات.

رفضت الإدلاء بأي كلام، خفت أن تكون خطة بين الأسد والنمر للتأكد من نواياي؛ لكن ما أكد لي صدق سهيل بعد عدة أيام، سيطرة النظام على باصات الحسن، أكبر تجارات سهيل، والتي تستخدم لنقل الناس وتهريب البضائع التركية، ثم الاشتباك المسلح الذي حصل بين قوات سهيل الحسن وقوات ماهر في ريف حماة، والذي انتهى بوساطة روسية.

بقيت بضيافة سهيل أسبوعاً؛ بسبب الاشتباكات العنيفة مع المعارضة حتى فتح الطريق مرةً ثانية وعدت إلى اللاذقية.

توجهت قبل معملي إلى منزل أم الشبيح حيدر في زيارة ليلية مفاجئة.

دخلت البيت.. كانت أم حيدر تلبس السواد ..فاطمأننت قليلاً.

أنا: كنت في العاصمة سمعت الخبر.. وجئت مسرعاً.. إن شاء الله خاتمة الأحزان خالتي.

أم حيدر: لقد خَتَمتُ الأحزان كلها، أبنائي الثلاثة ماتوا في المعارك، وهذا آخر أولادي.. وبقيت بلا معيل ولا كفيل.

عدت إلى المعمل بعد ذهاب العمال ...دخلت غرفتي، وفتحت خزنتي السرية.. أخرجت أجهزة التنصت، واستمعت إلى حوارات العمال التي دارت الأسبوع الماضي:

- كيف حدث هذا؟
- لقد هاجمته الضباع من يده وقدمه، ونزف حتى الموت، ولم يلحظه أحد حتى الصباح وقت ذهاب العمال إلى المعمل.
- لم تكن الضباع تهاجمنا عادة في هذه الأوقات.
- ربما جرحت رجله وأثارها رائحة الدم.
- لقد كان بطلاً قاتلها بالعصا حتى مات.

حمدت الله أني في سوريا، ولست في كندا، تحليل بسيط للحمض النووي العالق بالعصا يعلقني بورطة.

في الصباح.. نزلت وسلمت على العمال.

علي: اشتقنا لك حبيب، أين كنت؟

أنا: كنت في العاصمة أتاني اتصال مستعجل.. واضطررت للذهاب بسرعة.. لتسوية بعض الأمور المالية العالقة.. سمعت بخبر حيدر لقد آلمني كثيراً.

محسن: لا تتألم على حيدر.. بل لحال أمه التي ستتسول الآن.

أنا: لماذا تتسول؟ أين تعويضات أبنائها الشهداء الثلاثة؟

علي: عوضتها الحكومة عنهم بثلاث عنزات.

صدٌّ وردّ

تكلمت مع جاسوس سهيل، وأبلغته موافقتي التامة وأعطاني كلمة السر.

أرسل سهيل في اليوم الثاني ضباطاً موثوقين على معرفة بشبيحة معملي لتدريبهم في الخفاء.

في أثناء تصفحي للأخبار، قرأت عن سيطرة المعارضة على مخزن كبير للذخيرة، فرحت بالخبر كثيراً.

كل فصيل بالمعارضة، كان يتوقع أن من فعلها الفصيل الثاني.

لكن بالليل وقبل الفجر، وصلت ذخيرة المخزن المسروقة لمعملي مع رجال سهيل.

بدأت العمل بالخطة التي أعطاني إياها، بدأت شبيحتي بالسيطرة على شحنات تهريب الحشيش والأسلحة والبضائع بالسر ..ثم جهاراً نهاراً ..بشكل كامل بين دمشق والساحل ولبنان، كانت أرباحي أنا وسهيل لا تعد ولا تحصى.

حصلت اشتباكات بسيطة بالبداية؛ لكن زادت الاشتباكات عنفاً بعد انقطاع رزق حيتان مافيا الساحل والنظام.

كانت الغلبة فيها لنا مع أسلحتنا الحربية الحديثة، وجيشنا الكبير المدرب، وبعد السيطرة الكاملة، توقفت عن دفع الأتاوات والضرائب تماماً، وكان هذا بمثابة إعلان الحرب.

نفذ صبر "ماهر الأسد" في دمشق الذي تبين له أن صولات وجولات أقربائه وشركائه تافهة، وعلى المدنيين فقط، ومع شكوك بتآمر الفوج الخامس بقيادة سهيل معنا.

بعدها وصلني خبر نية "ماهر" القدوم إلى اللاذقية مع الفرقة الرابعة ..كتيبة المدرعات والإجرام.

ذهبت بسرعة إلى سهيل الحسن..

أنا: سيصل الدم إلى الركب، وأنا لا أثق بشبيحتي ..سينشقون فوراً، تكلم مع الروس من أجل المصالحة.

سهيل: نحن بمعارك حاسمة على جبهة إدلب.. ولن أتكلم معهم من أجل أمورٍ تافهة.

أنا: لقد أخذت حصتك من الأرباح.. وتريد أن ترميني بوسط النار الآن.

سهيل: انتظر سأجري اتصالاتي.

أنا: بالقيادة الروسية؟

سهيل: لا بالشركة العامة للنقل.. ليرسلوا لي باصاً أخضراً أرسلك به إلى إدلب.

أنا: اضحك و استهزئ! ماذا سيكون موقف الروس عندما يرون فيديوهات السلاح المسرب من الجبهة إلى المعمل.

وما موقف القيادة السورية عندما يسمعون تسجيلات الصوت وأنت تخطط لي وتأمرني.

سهيل: هل تهددني يا حيوان.. سأخرج منها مثل الشعرة من العجين.

أنا: كل مرة تخطط وتعمل.. وبالآخر تهرب مثل الفأر.. ولن تصبح رئيس سوريا.. الفرصة تأتي مرة وحدة.

سهيل: من أنت حتى تظن أن زعامتي ستأتي عن طريقك.. أنت مجرد مستثمر فاشل وابن حرام.. أم تظن أن الشبيحة العلويين سيتعاطفون معك ضد رئيسهم وابن طائفتهم.

- أنا ابن "باسل الأسد".
- جننتَ أنت، باسل ليس له أولاد.
- قلت لك أنا ورقة حظك.. نحن بالقرن ٢١.. وليس من الصعب عليك إثبات هذا الشيء.
- إذاً سيُلحقك عمك ماهر قريباً بأبيك ..يا قتيبة بن باسل.
- يبدو أننا سنذهب إليه معاً.. بينما تتكلم الآن تفاصيل معركة إدلب ستطير إلى القيادة الروسية.
- بماذا تهددني! القيادة الروسية على علم بكل أحداث المعركة.
- هل هي على علم بمن يفتح الطرق سراً.. لتصل إمدادات الأسلحة للثوار بالقرى المحاصرة.؟ أم على علم بمن يتكتم على أنفاق الثوار، ويقتل مكتشفها.؟
- لقد جننت تماماً.. مرة تدعي أنك ابن باسل.. ومرة تدعي أني أساند الثوار.
- يا غبي ..أنا أكثر قادة الحرب دموية وطائفية.

- وأكثرهم حباً للمال والزعامة.. إذا سيطر النظام على آخر معاقل المعارضة.. ستفقد زعامتك العسكرية، ومع الوقت ستكون أول من يضحى به.. أملاً بأن تمحى الدلائل على جرائم الحرب.. وللتوصل للمصالحة المزعومة.

أما إذا طالت المعارك فستنتهز الفرصة للاستيلاء على الحكم؛ ولكن كما قلتُ سابقاً: أنت أجبن من ذلك.

سهيل: اخرج.. ودعني أفكر بكلامك.

خلال تفكير النمر كانت الدبابات تدك معمليّ بمن فيهما.

أما الشبيحة، فكانت تصطادهم قوات الفرقة الرابعة، وتوقع بهم أشد العذاب والقتل.

وهم الذين كانو يهتفون بالأمس بألوهية القائد. استغفر الله.

وبعد ساعة كاملة طلب مني سهيل الدخول.

سهيل: ماذا سنستفيد من إثبات نسبك لباسل؟

أنا: سنسحب المليارات التي لم يستطع جدي "حافظ" سحبها كلها، لأن باسل ليس له وريث، ويكون لنا سلطة وزعامة، المؤيدون بدؤوا يكتوون بنار الفقر، ورؤيتهم لرفاهية النظام وأبنائه على حساب دماء أبنائهم القتلى ستقلبهم ضد بشار وماهر.

سهيل: إذا كان كلامك صحيحاً حقاً.. ستصبح الكرة بملعبنا.. ولكن يجب أن نثبت النسب أولاً عن طريق عمك.

- يجب أن نثبته عن طريق العمّين.

- لماذا؟
- لأنهم عموم وليسوا آباء... نسبة التشابه بالحمض النووي بيننا ستكون ٢٥ بالمئة فقط، أما إذا أثبتنا عن طريق الاثنين تتأكد النسبة أكثر.
- ماهذه النظريات غير المفهومة.. ٢٥ بالمئة و٥٠ بالمئة! هل هي نتيجة ثانوية عامة! هراء المثقفين لا أحبه.

(وكأن نظرية أعداء العالم مفهومة أكثر! نسيت أنني أكلم عقيداً في الجيش، وأحتاج إلى تبسيط المعلومة كثيراً)

أنا: إذا أثبت نسبي عن طريق أحدهما.. سندخل بمتاهة أن يدعي الآخر أنني ابنه العاق.. وهكذا تكون نتيجة جهودنا صفراً.

أريد شيئاً من ماهر وبشار يثبت أني ابن شقيقهما. شعر، بصاق، عينة دم.

سهيل: كبد، كلية، طحال.

ماذا تحب أن أحضر لك منهما أيضاً ؟! سجل لي قائمة.

فركة أذن
قاعدة حميميم الروسية
اللاذقية

بشار –ماهر –سهيل الحسن –قائد قوات الاحتلال الروسية في سوريا (أندريه سيرديوكوف) –المترجم.

أندريه: سنة كاملة لم تستطيعوا الدخول إلى محافظة إدلب.. طبعاً هذا ما سيحدث وأنتم تتقاتلون على الغنائم كحيوانات الغابة.

بشار: سيد أندريه باعتباري رئيساً للجمهورية.. فأنا أتعهد بعدم تكرار هذه الأزمة.

أندريه: وهل أنت تَمُون على شارعين بهذا البلد؟!

وأنت يا ماهر.. مستثمر صغير عمل فتنة بينكم وحرب.. ويا ليتك استطعت الإمساك به.

ماهر: سيد أندريه هذا الكلام يصلح لشريكه (في إشارة إلى سهيل).

سهيل: لننسَ الماضي.. ونوقع معاهدة صلحنا.. ونشرب نخبه.. وسأصور هذه اللحظات التاريخية للذكرى والعبرة.. يا الحارث ..أدخل حلوان الصلح.

أدخل الحارث الأعور حقيبة سفر كبيرة، ووضعها على الطاولة.

فتحها النمر بتباهٍ.

وهذا قتيبة سبب المشاكل أمامكم ميت ومستحم بدمه، ثم دخنوا السيجار الفاخر أمام جثة المستثمر الشاب المدماة.

تعا ولا تجي

فرنسا –باريس

مريم: يكفي بكاءً يا نور، ستبكيني معك.

- يا ليتك لم تأت، خلال أسبوع زيارتك أخرجتني من وحدتي التي كنت قد تأقلمت معها، وعصفت في ذهني كل ذكريات أهلي وعائلتي.. سأموت من شدة الكآبة.

مريم:

- استمري بالدواء.. إنه ممتاز ومريح.. لكنك تحتاجين أيضاً إلى جرعة شجاعة.
- مريم الله يوفقك.. لا تفتحي هذا الموضوع أبداً.
- الحل لمخاوفنا يا نور أحياناً أن نواجهها.. لقد غيرتِ تخصصك بعد عودتك من سوريا من طب الأسنان إلى الطب النسائي.. لأنك غير قادرة على رؤية الرجال.. قلنا أزمة وتمضي، ثم رفضتِ كل المتقدمين لخطبتك بحجة العمل وعدم التفرغ.. إذا مرضتِ أو متِّ لن يدلهم عليك إلا الرائحة بعد ثلاثة أيام.
- ما هذا الكلام؟ لقد زدتني هماً واكتئاباً.. إن الرجال الجيدين قد انتهوا بعد موت أبي وعمي وإخوتي.. غيري الموضوع من فضلك.

مريم: حسناً.. هل تعرفين من درّست في الكلية هذا العام؟

- من؟

مريم: ابنك .

صرختُ: لا تقولي ابني.. أنا لم أُخطب ولم أتزوج وليس لي ولد.. هذا ابن المقبور باسل.

مريم: حرام عليك.. إنه ضحية بريئة مثلك تماماً.. ثم إنه أفضل طلابي.

- بالتحرش بالفتيات والتلاعب بهن.. العِرق دسّاس.

مريم: إنه لا يفكر بالارتباط بفتاة إلا عن طريق الخطبة والزواج، وهذا الحديث الذي قلتِه نصَّ أهلُ العلم على عدم صحته.

أما الحديث الصحيح، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من مولود يولد إلا على الفطرة.

- حسناً.. الله يحميه ويسلمه لأهله.

مريم: بمناسبة ذِكر أهله، اعلمي أن النجاح ليس بالدراسة فقط وجمع الشهادات.. ولكن باقتناص الفرص أيضاً.. انظري إلى الحاجة فاطمة ..المرأة البسيطة غير المتعلمة ..بعد عقم عشر سنوات.. أنجبت ابنها واضطرت لإزالة الرحم بسبب نزيف عروق الدوالي الرحمية.. ثم جاءها طفل رضيع بريء آخر ضمته إلى صدرها وربته وعلمته.. والآن لديها شابَّان بارَّان ناجحان تفتخر بهما، طبيب ومدير أعمال.. وغداً يملآن بيتها بالأحفاد.

بكل الأحوال هذه صور ابنك.. إذا رقّ قلبك القاسي قليلاً.

خرجت مريم، ولم أقم بوداعها حتى، كنت مخبئة رأسي بين ذراعي مثل النعامة، إنني أخاف من رؤية صورته، كيف إذاً لو رأيته بالحقيقة!

كلمت نفسي يكفي يا نور حمقاً.. إنها مجرد صورة.

مددت يدي المرتجفة ببطء مع تسارع أنفاسي، وقلبت الصورة.

شاب طويل وسيم وببنية قوية، شبهه بباسل قليل -الحمد لله-، العينان بريئتان لدرجة لا توصف، والابتسامة خجولة مع غماز طولي كبير على اليسار ..ظهر رغماً عن وجود اللحية السوداء الأنيقة.

بكيت بكاءً شديداً، إنه نفس غماز أمي الذي كان يتغزل به أبي كثيراً رحمهما الله.

قلبت بقية الصور: صورة عائلية بمتحف مونتريال..

- عيد ميلاده الرابع عشر، مع بداية ظهور شعر الشارب..
- صورة ببدلة التخرج يقبل يد أمه بأدب شديد واضح على ملامحه، مع دموع الفخر والتأثر من عيون الحاجة فاطمة.

في هذه الصورة أمر مزعج جداً لا أعرفه، بحثت عنه في الصورة ولم أجده، لكن حقيقة كان يجب أن أبحث عنه في أعماقي ولاوعيي، أن أبحث في رحمي الذي احتضنه تسعة أشهر.

إنها مشاعر الغيرة اللامفهومة واللامنطقية من أمٍّ احتوت طفلاً، أقلق من رؤية صوره حتى.

مهمة دبلوماسية

سيارة عسكرية تقلني إلى مطار دمشق وفي أذني تنبيهات سهيل.. لا ترتبك.. كن طبيعياً لأبعد الحدود.

مشيت واثق الخطا ببدلتي الأنيقة، تحمل مرافَقتي حقائبي السامسونايت.

رميت للموظف جوازي الدبلوماسي الأحمر، فختمه بسرعة، الموظف: تفضل الجواز أستاذ سليمان(اسمي الوهمي).

توجهت إلى مقعدي في الطائرة المتوجهة إلى دبي، ثم إلى سويسرا –درجة رجال الأعمال والمؤامرات.

وصلت إلى بيرن عاصمة سويسرا مع مرافقتي التي لحقت بي بعد ساعات، وكان في انتظاري مجموعة من أمهر المحاميين المتخصصين بالقضايا المالية الشائكة، أرسلهم خالي محمد .

انتظرت مدة أسبوع، حتى وصلت الأمانة مع أحد الرجال، فتحت الحقيبة فوراً (كأسا خمر –عقبا سجائر وورقة الصلح الرمزية التي وقعها أربعتهم)

أرسلت مع المحامين الكأسين والسجائر فوراً إلى مختبر خاص مع نقاط من دمي، ووصلت النتيجة الحاسمة: تطابق بنسبة ٢٥ بالمئة مع كل حمض نووي، القرابة: ابن أخ.

أما ماذا يهم إحضار ورقة الصلح الموقعة؟

فالبصمات التي على الكئوس والسجائر، ستتطابق مع البصمات التي على الورقة الرسمية التي وقعها بشار، وشَهِد عليها مقطع الفيديو الذي صوره سهيل... ممايدل دلالة قاطعة أن الحمض النووي لهم .

تكفلت مجموعة المحامين بكل شيء..

استطعت سحب جميع الأرصدة المجمدة في بنوك سويسرا، الذين تأكدوا بدورهم بطرق أخرى لا أعرفها من صحة نسبي إلى باسل.

ورفع محاميَّ قضية في النمسا ضد البنك الذي أعطى بقية الأموال لامرأة أرسلها حافظ..مدعية أنها أرملة باسل عن طريق عقد زواج مزور.

طار الخبر بسرعة البرق إلى الشام، وهناك تحول إلى صاعقة تزلزل القصر الرئاسي..

بشار: مصائب باسل تبقى حتى بعد موته.

ماهر: إنه ليس مثل أي شاب مرفه مدلل من آل الأسد.. إنه يريد ملك أبيه لو كان الثمن روحه.. ولسهيل حسابٌ قاسٍ معنا.

سوريا بدها حرية

في الشام أصبح الدولار يساوي ألفي ليرة، والغلاء لا يطاق ولا يحتمل، الشام في مجاعة كبيرة تكوي المؤيد قبل المعارض.

قتل سهيل العناصر الروسية الموجودة في الفوج الخامس بشكلٍ جماعي، وبدأ الاشتباك مع بقية الكتائب والوحدات في اللاذقية، وسيطر سيطرةً كاملةً على المدينة، وتمت تصفية أقارب الأسد وعناصرهم بشكل كامل، وبدأت الاشتباكات في دمشق والمدن السورية بين العناصر الذين مولتُهم بآلاف الدولارات وبقية عناصر الأمن والجيش..

كان الفوج الخامس مجهزاً بالأسلحة الحربية الثقيلة التي وجهها سهيل على بقية القطع والوحدات العسكرية، وعلى أوكار بشار وماهر الخفية.

لم تستطع القيادة الروسية إلا التهديد والوعيد، ولم تستطع إلا الوقوف موقف المتفرج على عملائها، وهم يتقاتلون في سبيل المال والمصالح.

أما على صعيد جبهة إدلب، فقد بدأ الجيش الحر بالتوحد والتعافي والتمدمد مرة أخرى إلى حماة وحلب، وإنزال أشد الضربات إيلاماً بالمرتزقة الروسية الذين يقاتلون منفردين على خط النار.

دام الأمر شهوراً، خبأ الروس خلالها خبر مقتل بشار وماهر ..إلى أن أعلنوا الخبر وطلبوا الهدنة والتسوية.

هنا فهمنا تماماً أنا وسهيل أن الاحتلال الروسي يريد وضع أحدنا في القيادة والتضحية بالآخر؛ لتدور الحرب مرة ثانية بيني وبينه التي كانت نتيجتها قتل سهيل وأسر قواته، وإصابتي إصابة بالغة في رجلي.

سهلت الأمور للجيش الحر للسيطرة الكاملة.. وفي تاريخ ١٥/ ٣/ ٢٠٢١ تم دخول كتائب الجيش الحر إلى دمشق الياسمين.

استلم المجلس الانتقالي الحكم مؤقتاً، وفتحت السجون؛ ليخرج منها آلاف المعتقلين والمعتقلات، وبدأت المحاكمات العادلة، عاد اللاجئون من الشتات بالملايين؛ لإعادة الإعمار ورؤية الأهل والأحباب.

تشابه أسماء

دمشق

مشاعري عند رؤية عائلتي، لا يستطيع الكلام وصفها، عانقت أمي وأبي وهوزان عناقاً طويلاً.

لاتعطي ملامح هوزان للسعادة والحزن حقهما إلا عن طريق عينيه الخضراوين اللتين تضيئان عند الفرح..

أمي بخوف: ماذا حدث لقدمك يا بنيّ؟

إصابة بسيطة وتزول.. لا تقلقي يا أمي المهم رؤيتي لكم بخير.

أمي: ياليتها قدمي يا حبيبي التي أصيبت.

بعد قليل رأيت المشهد الذي كان يؤرق ليلي ونهاري.. سعيد معه لميس تحمل ابنهما الصغير الذي بادرني بضحكة حلوة بسنّين لم أستطع إلا أن أبادلها بأخرى.. أدرت وجهي عنهم بعدها فوراً مع تنهيدة.. عليّ أن أتناساهم لن أستطيع تغير العالم كله.. لاحظت أمي كل هذا، وقالت لي: فليذهبوا إلى الجحيم. سيوقعهم الله بشرّ أعمالهم يوماً ما.

لقد حان وقت العتاب: لكن يا أمي لماذا لتشاركوهم أفراحهم التي بنوها على تعاسة الآخرين.

أم قتيبة: يا حبيبي لقد ألقى لنا سعيد الخبيث طعماً بدعوته لنا إلى حفل الخطوبة، ليتأكد من صدق غضبنا تجاهك وتبرئنا منك أم لا، كان علينا أن ندعس على قلوبنا ونذهب مرغمين.

- أستغفر الله.. كيف لم يخطر على ذهني السبب وهو أمام عيني.
- لأن أباك أمرك أن تترك مشاعرك جانباً.. لكنك لم تطعه.

أبي، أمي، كيف ستكون علاقتي بكم بعد أن يعرف الجميع ابن من أكون.

كيف سأتعامل مع أُمّين في نفس الوقت... بعد قليل..

رأيتها تنتظر دورها، ما زالت جميلة حسناء مثل صور شبابها .. بتناسق رائع بين عينيها الخضراوين العسلية وبشرتها الذهبية، حقيقة لا أعرف كيف أتصرف، وماذا أقول.. كان كلانا واجماً يحدّق بالوجوه، ثم كسَرت الصمت وركضت.

فتحت يدي على وسعهما لأعانق أمي الحقيقية لأول مرة، لكنها ضمت هوزان بشدة، وبللت صدره بدموعها، ثم انحنى إلى وجنتيها وقبّلهما.

أمي.. لقد أخطأت هذا أنا أمامك.. ابنك قتيبة ...شدني أبي من ذراعي.. يا أبي ماذا تفعل هذه.؟؟. وكيف تعانق وتقبل أخي الغريب عنها.؟

أمي: ولماذا لا تعانق الأم ابنها.

أنا بذهول: أمي.. أبي عن ماذا تتكلمان ..أنا قتيبة العربي ابنها، الذي وضعني التنظيم أمام مسجدكم لترعوني.

أبي: وهل يولد الرضع يا قتيبة مع وسم على جبينهم يصنفهم إلى عربٍ وكردٍ و ترك. أبناء ريفٍ أم مدينة.. جاؤوا بالحلال أم الحرام.. تأتون إلى الدنيا سواسية ثم تبدأ وسومنا التي نسقطها على أطفال أبرياء نصنفهم فيها ونغير حياتهم بسببها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا لا فضل لعربي على عجمي.. ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود.. ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى.. إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

لقد استطعنا التحايل على أنيسة إسماعيل.. ولكن هل كنا سنعرف من أين سيأتي جاسوس باسل التالي، وخاصة عندما يشم رائحة حمل وولادة.

لم يكن يتوجب عليّ إلا تبديل المواليد وتسمية العربي باسمٍ كرديٍ أصيل والكردي باسمٍ عربيٍ أصيل، ووضعك أنت ابني الحقيقي أمام المسجد مع متابعتك لأخذك فيما بعد، وضم هوزان إلى أمك بهدوءٍ في هذه الأثناء.

وهكذا لن يشك باسل أنه إذا كان له ولد فهو قتيبة صاحب الاسم العربي المرمى أمام باب المسجد.

قتيبة: ألم تخافوا عليّ، كيف سمحت لكم أنفسكم التفريط بي هكذا؟

- كانت عيوننا تلاحقك إلى دار اللقطاء المحصنة جيداً لحماية الرضع من أي اعتداء، وكانت الممرضة سوزان ابنة خالتك هناك لا تفارقك ليل نهار.وبعملنا هذا سيصل باسل إلى طريق مسدود موصد بإحكام.

أوصلته استخباراته إلى قصة المسجد ودار اللقطاء لكن..

لم يستطع إلا سرقة عينات تحاليل الأطفال، كان إخراجهم من المختبر أهون بكثير من إخراج طفل، وتحقيقات لا تنتهي، وبالتأكيد لم يتطابق دمه مع أي طفل وعلم باسل يقيناً أنك لست ابنه، وظن أن أموره قد عدت على خير وسلامة.

قرعة الموت _ قرعة الانتقام

قتيبة: حسنا ...ولماذا لم ترسلوه إلى سوريا إذاً؟

الأب: إذا حدث لك شيء في سوريا يبقى هوزان في أمان لسحب المال والأرصدة.

قتيبة: يا الله.. هوزان.. هوزان ..دائماً هوزان. عندما كنت ابن باسل كانت الأولوية له.. عندما أصبحت ابنكم أيضا كل الأهمية له.

الأب: يابني.. لا تظننا قساة القلب لهذا الحد، لكن ألم تسأل نفسك بيوم من الأيام لماذا أعمار والديك تقارب السبعين، وأنت مازلت في العشرينيات؟

أمي: لم أتكلم عن مأساة أولادي وبناتي، أبقيتها حسراتٍ في قلبي ودعواتٍ على حافظ وأبنائه كل هذه السنين.

قتيبة: أمي! عقلي لم يعد يستوعب، أعرف أنك دائما بحزن وألم، لكن عن أي أبناء وبنات تتحدثين؟

الأم: قبل انضمام والدك لأي تنظيم سياسي انتقلنا إلى حماة، واضطر والدك لتركي والسفر إلى الشام لوداع جدك الذي يحتضر في المشفى.. كنت في ذلك الوقت _في الثمانينات من القرن الماضي _شابةً في الثلاثين من عمري، والدنيا لا تسعني سعادةً لإنجاب أربعة أطفال رائعين يملؤون البيت مرحاً "محمد، زيد، علياء، عائشة"

في الليل استيقظ إخوتك الصغار على صوت يشبه الألعاب النارية، لم أهتم

وتوقعته أحد المناسبات الوطنية، طمأنتهم و ضممتهم إلي في سريري.
حتى هدؤوا وناموا، لكن الأصوات لم تكن تهدء ..حاولت الاتصال بوالدك، لايوجد حرارة في الهاتف.. فتحت النافذة، جنودٌ بالعتاد الكامل منتشرون بالآلاف يدخلون البيوت، ويكسرون الأبواب ..ويضربون الناس بالهراوات ويرمونهم بالسيارات العسكرية.
دباباتٌ على مدخل المدينة، قصفها يهز الأرض تحتنا، بدأت أبكي، أين أنت يا زوجي ؟!
دخلت إلى أبنائي المكورين تحت الغطاء كتلاً مرتجفة، أردت طمأنتهم ..لكن كنت أرتجف أكثر منهم، هبط قلبي مع صوت تكسير الباب.. دخل البيت قرابة العشر جنود بأسلحةٍ وذخيرةٍ تكفي لتحرير الجولان، وجعلوا عالي بيتنا سافله.
طلبت من أولادي عض اللحاف، كي لا يصرخوا ويبكوا بصوت عالٍ، فيفرغوا حقدهم ورشاشاتهم برؤوسم الصغيرة.
انتهى التفتيش وجاء الضابط: أين يختبئ زوجك ابن ال....
أنا: إنه في الشام يا سيدي.
الضابط: لقد دخلت ١٠ بيوت.. وكلهن أزواجهن بالشام.
أليس أمرا لا يدخل العقل؟!
أنا: أقسم يا سيدي إنه بالشام عند والده.
الضابط: مارأيك يا علي.
علي: كاذبة سيدي.

الضابط: حسنا سنرى إن كان سيخرج زوجك الآن أم لا.

أي ولد من أولادك تختارين أن يقتل، شرعت أنا وإخوتك بالصراخ والترجي، لكن هيهات لقلوب أقسى من الحجر أن ترحم.

هيا.. إن لم تختاري سأقتلهم كلهم ورفع الرشاش، ذكرت اسم أخاك الأكبر محمد دون أن أنظر إلى عينيه، لا أعلم كيف كانت تنظر عيناه البريئة لحظة الموت، غبت عن الوعي، ثم صحوت على رفس البوط العسكري على وجهي.

الضابط: هيا لنكمل القرعة.. أم أختار أنا بالعد إلى العشرة.

_أترجاك يا سيدي برحمة والديك

رفع الرشاش مرة أخرى، وضعت عيني بالأرض وقلت زيد.. ليصوب رصاصةً إلى رأسه الصغير.

الضابط: والآن أي البنتين؟

_ أقبل يديك ..أقبل رجليك.. إنهما طفلتان في الثانية والرابعة من عمرهما، لن يحملا في عمرهما سلاحا ..لن يؤذوكم بشيء.

_لكن سيحملون في أرحامهم النجسة إرهابيين يخربون البلد.

قتل الصغيرتين، ثم وجه رشاشه لي وأنا منهارةٌ في الأرض.

ابتسمت... سألحق بصغاري أخيراً.. لن يطول الفراق يا ملائكتي.. لكن .. رن اللاسلكي بيده وذهب فوراً.

استلقيت على السرير الأحمر القاني ذاهلة، وغطيت إخوتك خوفاً عليهم من البرد ..ونبهتم بضرورة النوم باكراً، ثم ذهبت إلى غرفهم، وجهزت حقائبهم

المدرسية وكويت ملابسهم. رن منبه الساعة السابعة ..حضرت الإفطار لصغاري ..لا بد أنهم جائعون، دخلت لإيقاظهم، شعرت بغضب شديد: أيها المشاغبون ..لماذا لطختم وجوهكم وأجسادكم بالمحبرة الحمراء.. ألم تخبركم المعلمة ألا تستخدموها حتى الصف الثاني (نعم، لقد أخبرتهم مدارس البعث أنهم صغارٌ على استخدام الحبر، لكن لم تخبرهم أبداً أنهم صغارٌ جداً على الموت)، حاولت إيقاظهم، لم يستيقظوا ، ذهبت إلى جارتي العجوز في البناء المقابل لأستشيرها وأنا قلقةٌ عليهم ...لكن لم يفتح لي أحد.

ثم بدأت القذائف تنهال على المدينة، و لم أشعر بنفسي إلا و أنا في قبوٍ رطبٍ مع رائحة الكحول والمعقم .. مضاءٍ بلمبة صغيرة، مع نساءٍ وأطفال،و رأسي ملفوفٌ بالكامل.

بدأت بالصراخ أين أبنائي ؟

سد الطبيب فمي بسرعة!

اسكتي ..ستقضين علينا.

بدأت أبكي وأمسك يده مترجية.

رفع يده عن فمي..

أطفالي لوحدهم في المنزل خائفون.. يجب أن أحضرهم.

_انتظري للفجر حتى يخمد كلاب رفعت وحافظ قليلاً.. وسوف يتسلل أحد الشباب ويبحث لك عنهم.

ولم أستوعب ما حصل لأولادي إلا بعد علاج مرير بالصدمات الكهربائية امتد لعدّة سنوات.. كم تمنيت لو لم أستفق وأن أبقى في وهمي المريح مع

صغاري البريئين.. إنني إلى اليوم لا أعرف أي أرضٍ طيبةٍ ضمت أجسادهم الطاهرة.

لا أستطيع أن أريك صورهم الجميلة ..لقد حطمت بالقصف مع ألعابهم البريئة.

إن صورهم هنا في قلوبنا أنا وأبيك.. وفي أحلام لياليا.

لقد نذرت إنجاب طفل لتربيته على الانتقام ولو بعد عقود.

بكيت بحرقة: كم تحملت يا أمي من ألم لا تطيقه الجبال .

الأم : عليك أن تسألني ..كيف تحمّلت ضم حفيد قاتل أطفالي إلى صدري !!

كنت أبكي بحرقة أمٍ ثكلى كلما أرضعته ..حتى ابتسم لي بعد شهرين ابتسامته الحلوة التي تشبه ابتسامة أمه نور الرقيقة وأمها , حينها فطنت أنه ضحية بريئة مثلها . سيكون مصيره مصير أبنائي الشهداء لو علم بأمره باسل.

كنت مصدوماً تماماً مما سمعت ..

لكن جمال الحرية والعودة للوطن كان يخفف عنا كل هذه المفاجئات والذكريات المؤلمة.

طوال طريق العودة، كنت أفكر شارداً..كيف استطاع والدايّ خداعي كل هذه الفترة ..كم كان المصاب الذي دفعهم إلى ذلك جللاً , أم كيف تمكن

الطبيب محمد والمحامين من خداعي تماماً.. عن طريق رمي عينة دمي , و القيام بمطابقة دي ان إيه هوزان مع دي إن إيه بشار وماهر .

إلى أي قدر من القوة والمكانة كانت ستصل هذه البلاد لو وصل أمثال هذه العقول إلى الحكم .

لكن بكل الأحوال أنا أشعر بالغبطة والسرور.. لقد حصلت على عائلتي الحقيقية وعلى وطني .. وحصل هوزان على عائلته ..

إن محبتي و أخوّتي لهوزان أبديةٌ لا تنتهي ..لا يعيقها اختلاف دمٍ ولا عرقٍ ولا نسبٍ .

سيبقى قطعة من روحي لا تتجزأ.

أمعنت بعدها النظر في نور ..

كم تشبه هوزان .. نفس العيون الخضراء.. الآن عرفت سبب شعوري الدائم بأنني أعرفها من قبل على الرغم من عدم اجتماعنا في بلد واحد.

لمساتٌ نازية

هوزان:

بعد قليل.. وصل خالي محمد من السعودية، وتوجهنا إلى بيتنا الوحيد في الشام.

دخل خالي وأمي البيت صامتين، وكأنهما في عزاء، وأعينهم تجول في المنزل المرفوع رأساً على عقب بعد تفتيشه قبل قرابة الثلاثين عاماً.

أمّا أنا فدخلت غرفةً عرفت فوراً أنها غرفة عمار، عندما رأيت المشروع الهندسي غير المكتمل مصفرّاً ومَرميّاً على الأرض.

شعرت بقشعريرةٍ تنتابني، على هذا السرير نام عمار ليلته الأخيرة، وهو لا يدري بالأفعى المتربصة له في الخزانة.

خرجت من الغرفة، رأيت خالي محمد يجمع ملابس جدي وجدتي وأخوالي بحقيبة سفر ويرتبها برفق.

وأمي تعانق فستان زفاف أمها المصفر وتبكي.

خالي محمد: هيا يا نور لنخرج..

ستزداد نفسيتك سوءًا.. سنبيع المنزل وننتهي من ذكراه.. ونبدأ حياةً جديدة.

أنا: ولماذا نبيع المنزل؟

خالي: وأنت ماذا يهمك بالموضوع، لا ذكريات لك فيه ولا أحزان.

أنا: لماذا؟ لنطوي ذكرى جدي وأخوالي ورفاقهم بهذا الشكل؟ لماذا الهروب؟ إنّ هذا البيت يجب أن يكون متحفاً شاهداً على نضال عشرات الأفراد لعقود.. وهكذا نبقي ذكراهم العطرة خالدة في قلوب الجميع.

ابتسم خالي، وتوقفت أمي عن البكاء، وقالت: ماذا سنسمي المتحف.

أنا: جنودٌ مجهولون.

دمشق

تموز ٢٠٣٠

تعافيت الحمد لله من السرطان بعد سنوات من العلاج والألم ..لكنه ذهب بقدرتي على الإنجاب تماماً..

لن أكون أباً في يوم من الأيام..

أو كما قال لي الطبيب: هذه البلد لم تعد تحتمل فرداً آخر من آل الأسد..

فارس فضي

توجهت في هذه الفترة إلى الفروسية أتشاغل بها عن مللي و ألمي وأخوض مسابقاتها الحامية

وجلس على مدرجات التشجيع قتيبة ووالداه وزوجته وأبناؤه هافال وآفين وأمي وخالي وفتاة حسناء ترغب والدتي نور بخطبتها لي.. أختارتها بعناية، معتقلة سابقة ..كي يحصل الانسجام بينهما.

ستبدأ مسابقة الفروسية، وقفز الحواجز بعد قليل تحت إشراف المدرب والفارس الذهبي عدنان قصار (الذي سجن ٢١ عاماً؛ لتفوقه على باسل بالفروسية

تعالت صيحات أهلي وهتافهم عند خروجي على خيلي الأسود الأصيل، كان حماسهم لا يصدق؛ لكن ما لبث أن تناقص تدريجياً، عندما أسقطت كل الحواجز وعدت مهزوماً..

عدنان قصار ضاحكاً: فارس فاشل مثل أبيه..

بمناسبة الحديث عن والدك: ماذا ستسمي خيلك؟ لقد سمّى أبوك خيله "**الأغرّ**".

هوزان : سأسميه الحرّ.. الحرّ الأصيل

بعد انتهاء المسابقة، بدأ تكريم الأسماء الثلاثة الفائزة مع تصفيقنا وتشجيعنا. لهم على ألحان النشيد الوطني السوري:

عن هالثورة ما بتخلى ... لو كل العالم تتخلى

يا شعبي اهتف بالعالي ... الموت ولا المذلة

أقسمنا نحمي هالثورة ... لو مايبقى واحد منا

النصر يا أما الشهادة ... الموت ولا المذلة

صامدين نحنا بهالثورة ... ما نركع إلا لخالقنا

فتح عينك يا قاتلنا... الموت ولا المذلة

لو نتراجع عن مطلبنا ... دم الشهداء بيلعنّا

منموت وبيحيا وطنا ... الموت ولا المذلة

كل الشعب السوري واحد ... طائفية ما تعنينا

بعون المولى نحنا مشينا ... الموت الموت ولا المذلة

الخاتمة

تمل مللاً قاتلاً بسبب جلوسك في المنزل لأيام خوفاً على صحتك؟!

لقد تكدّسوا في زنازينهم ٩ سنوات.

تضجر من روتين الراحة اليومي المتكرر؟!

روتينهم اليومي هو العذاب والاغتصاب.

تنزعج من شغب أطفالك وضجيجهم؟!

لم يروا أطفالهم ولا يعرفون إن كانوا أحياءً أم أمواتاً.

تقلق على مستقبلك المهني ومصدر رزقك؟!

يتركون ليموتوا جوعاً وعطشاً.

تخاف من فايروس كورونا واحتمال إصابتك به أقل من ١ بالمئة؟!

تفتك بهم الأمراض والطواعين بلا علاجٍ ولادواء.

لكن!!.. لا تخف.!

فطاعونهم لن يصل إليك..

إنهم بعيدون جداً.. تحت الأراضي الصلبة .. وفي الصحاري الحارقة..

لايسمع صوت عذابهم واستغاثتهم إلا الله سبحانه وتعالى.

أما ما سيصلنا.. فهو لعنة الظلم على كل من أيد.. سكت.. نسيهم أو تناساهم.

عن أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– قال: يا أيُّها النَّاس، إِنَّكُم لَتقرَؤُون هذه الآية: (يَا أَيُّها الَّذِين آمَنُوا عَلَيكُم أَنفسَكُم لاَ يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيتُم) [المائدة: ١٠٥]، وَإِنِّي سمِعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: "إِنَّ النَّاس إِذا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَم يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيه أَوشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ."

[صحيح.] – [رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد.].

أمية الهاشمي